obeikandl.com

فى حضرة مولاى الشعر

obeikandl.com

فى حضرة مولاى الشعر

فـاروق شوشـة

obeikandl.com

obeikandl.com

إهـداء

إلى أبى:

المعلم والمربى والشاعر المجهول، الذى أتاح لى فرصة اللقاء مع الشعر، فأصبحت من مريديه.

فاروق شوشة

obeikandl.com

obeikandl.com

هذا الكتاب

يمثل هذا الكتاب حلقة جديدة فى سلسلة متصلة الحلقات، محورها الأساسى والمركزى: الاهتمام بالشعر إبداعا وتذوقا. وقد سبقته مجموعة من الدراسات الأدبية السابقة والمختارات الشعرية، حرصت فيها على الاقتراب مرة بعد مرة، من كنز الأسرار التى يتوهج بها النص الشعرى، فى تجلياته الفنية المتعددة، وفى جمالياته الممتدة عبر العصور. من هنا، كان عكوفى على اختيار المادة الشعرية للبرنامج الإذاعى اليومى: (لغتنا الجميلة). بداية للتواصل الحميم مع القصيدة العربية، وهو التواصل الذى يتجاوز الآن أربعين عاما. ومن حصاد هذه المادة الشعرية الحافلة، والمتعددة الألوان والمذاقات، كان اختيارى لأحلى عشرين قصيدة حب فى الشعر العربى، ثم لأحلى عشرين قصيدة فى الحب الإلهى، على أمل أن تتسع هذه المختارات بعد ذلك لأحلى عشرين قصيدة فى مجالات أخرى، من بينها: الوطن والغربة والاغتراب وبكاء الراحلين وتأمل دورة الأيام... وغيرها من فضاءات الإبداع التى حلق وما يزال يحلق فيها الشاعر العربى.

ثم كانت الخطوة التالية فى الحض على قراءة هذا الشعر، والتهيئة لتذوقه، واستشفاف صور الجمال الفنى والإنسانى فيه، بعد أن تخلخلت العلاقة بين القصيدة والمتلقى، وانهيار مستوى اللغة العربية فى التعليم **أولا**، وعلى ألسنة الناس وأقلامهم **ثانيا**. والشعر فى جوهره فن لغوى، أو هو فن الإبداع الأسمى باللغة، ولابد لمن يقاربه أن تكون ذائقته اللغوية على قدر من الصحة والسلامة والقدرة على التمييز. وبالإضافة إلى هذه الخلخلة فى العلاقة بين القصيدة والمتلقى، كانت هناك النماذج الرديئة والهابطة التى ازدحمت بها الساحة الأدبية، وروجت لها وسائل النشر وأجهزة

الإعلام، وصمت كثير من النقاد أو تواطأوا أمام هذا الفيض من الركاكات والتشويه، فى غمرة النغمة التى عزفها أحد النقاد الكبار الراحلين ـ وكان يقصد إلى التحذير والتنبيه ـ وهو الدكتور "على الراعى"، عن زمن الرواية؛ ليتلقف البعض هذه الصيحة، ويجعلوا منها عنوانا لعصر أدبى، وترويجا للون من الكتابة، وكأن بينهم وبين الشعر ثأرا شخصيا غير مفهوم.

ووجدتنى أدلى بدلوى ـ مع غيرى من المؤمنين بالشعر ـ باعتباره صوت الحياة الأقوى، ومجلى تحققها الدائم، وهتافها الكونى، والروح النافخة فى كيان هذه الأمة وجوهرها، وهو مطلق أشرعتها ومجدد ألوانها، وباعث حيويتها وحامل قسماتها وجيناتها، ومفجر كيميائها ـ داعيا إلى يقظة الضمير الأدبى النقدى واعتدال الميزان، من خلال كتابات متلاحقة هى: العلاج بالشعر، وزمن للشعر والشعراء، والشعر أولا والشعر أخيرا، والإغراء بالقراءة، وجمال العربية، وأصوات شعرية مقتحمة، وهؤلاء الشعراء وعوالمهم المدهشة.

ثم يجىء هذا الكتاب: (فى حضرة مولاى الشعر)، كاشفا عن بعض نبرات اليقين الذى لم يتوقف يوما، ومضيفا إلى ما سبقه من دراسات ووقفات ورؤى، يمكن أن تندرج جميعها تحت عنوان واحد كبير هو: (الإغراء بالقراءة)، حاملا عطر القصائد التى أحببتها، والشعراء الذين توقفت عندهم بالمتابعة والاهتمام، والزمن الشعرى الجميل الممتد من الماضى إلى الحاضر، فى عناق وجدل دائمين، يتولد من خلالهما النص الجديد والقصيدة الجديدة، التى هى أمل الشاعر وحلمه الدائم.

ثم أختم بما قلته فى مناسبة سابقة: "والمؤمنون بالشعر، فى هذا الزمان العبثى، هم المؤمنون بالإنسان، وبالوجدان، وبالمعرفة، وبالفضاء الذى يتسع لإبداعات شتى، تتكامل وتتناغم، فى ظل سعينا الدائم لمزيد من الحرية والتحرر، ومزيد من التنوير والتقدم، ومزيد من الكرامة والكبرياء".

فاروق شوشة

سؤال الشعر

أتيحت لى ـ بدعوة كريمة من المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب فى الكويت ـ المشاركة فى الحلقة النقاشية التى أقيمت فى إطار ندوة الشعر العربى الحديث: من أين؟ كيف؟ إلى أين؟ وقد كان حديثى عن سؤال الشعر بوصفه نصا جماليا، يتشكل وينطلق ويحلق فى فضاء. هو إذن ليس منبت الصلة، بحيث نتصور الفضاء فراغا، وإنما هو مشتبك بحركة الواقع وجدليته ومتغيراته.

فى هذه العبارة الأخيرة، تظل مشكلة حداثة المجتمع أو تحديث المجتمعات العربية ـ التى تتزاحم وتتجاور وتصطرع فيها عصور وقرون مختلفة بكل ميراثها ـ مشكلة ضاغطة وحاكمة. فالأصوات الصادرة عن المجتمع ـ فى أبعادها الثقافية والحضارية والمعرفية والجمالية ـ تعزف نشازا، وتتقلص وتنكمش وتتأزم بصورة حادة: سلفيا وحداثيا، ماضويا وراهنيا ومستقبليا. وفى قلب هذا التأزم تهب زوابع عاتية تتمثل فى الإلحاح على تناول القضايا اليومية والمصيرية، والمطالبة ـ لمن يبدعون ـ بالكتابة المستمرة؛ حتى يضمنوا شرط الحياة والبقاء والاستمرار. فالتوقف ـ أمدا قصيرا أو طويلا ـ لا يعنى بالنسبة لهذه المجتمعات لونا من المراجعة والاحتشاد أو العزوف والتغيير، أو البحث عن رؤى ومنصات انطلاق جديدة، بل هو يعنى الموت والخروج من التاريخ.

وهنا تبرز مشكلة المتلقى المأزوم بهموم الواقع ومسئولياته الجسام، عندما يجد

خلاصه فى مؤازرة الخطابية والمباشرة، وعندما تطربه فتنة السياسى والراهن، مسقطا الجماليات المتعارفة. فهو يرى أن الشعر دور، وأن الشعر التزام دائم، وصوت لا يتوقف عن العزف أو النشيج، تعبيرا عن وجوده الحى وعن فاعليته.

كما تبرز مشكلة الناقد ـ فى اغترابه الثقافى والمعرفى ـ بعد أن امتلأ بمعطيات فكر فلسفى ونقدى، وصلته ثماره دون أن يتأمل مكوناته، وأنساق تعبيره عن إبداعاته فى بيئاته. وهو فى الأغلب الأعم يكتب لغيره من النقاد، ليطلعهم على سبقه فى المعرفة والاكتشاف. وإذا تعامل مع النص الشعرى العربى، فهو يريد وضعه فى الأوعية والقوالب والطرائق التى أخذها عن الآخرين. أى تطبيق الأجنبى على العربى. الأمر الذى أدى ـ ويؤدى ـ إلى فشل التعامل مع النص الشعرى عند كثير من نقاد الحداثة. كما أن تفجر الشعرية العربية الجديدة، وانديا ح موجاتها المتتالية فى المغامرة والتجريب، جعل كثيرا من النقاد والدارسين ـ المزودين بالوعى المتاح من خلال الثقافة التراثية ـ عاجزين عن المتابعة والتحليل والاستشراف، فالإبداع المتلاحق يتطلب ركضا نقديا ووعيا معرفيا مغايرا. إن الصناعة القديمة والبضاعة القديمة لم تعد تسعف ـ من يحملونها ويتمثلونها ـ بالوعى الكاشف أو الأدوات المناسبة. الموروث البلاغى الجمالى كله يتطلب النظر إليه باعتباره تاريـخا لا متنا، وهامشا يرجع إليه للشرح والتفسير، لا باعتباره ذخيرة عصرية، يمكن أن تنقع الصدى أو تبل الأوام.

ثم هناك المتلقى الذى تربى عبر عقود وأجيال وعصور طويلة على سلطة الموروث، ثم فوجئ فى مدى نصف قرن واحد، بأنه لابد أن ينقلب على ذاته وذائقته مرتين: مرة مع الشعر الحر، وثانية مع قصيدة النثر.

والسائد من نمط هذا المتلقى الآن: نموذج يحمل هشاشته اللغوية فى مواجهة فن لغوى فى الأساس، ولا يمكن التعامل مع استعاراته الكبرى إلا من خلال أبنيتها، وأنساقها اللغوية والمعرفية. وساعدت أجهزة التوصيل فى المجتمعات العربية: الصحافة والإذاعة والتليفزيون على إشاعة المتدنى والمبتذل، والترويج لما ليس شعرا

فى جوهره، وتكريس النموذج الذى يمكن أن يكون غيبوبة متوهمة ـ خاصة فى الإذاعة والتليفزيون ـ بتحويله إلى هدهدة ما قبل النوم، ونفى ما يحمل وعيا كاشفا متعلقا، أو رؤى إنسانية وكونية صادمة. الأمر الذى أدى إلى تدجين الشعر، وإهاضة جناحيه، وقصقصة ريشه، وتحويله ـ عند المتلقى الـمحتجز خلف حاجز الأمية الهجائية من ناحية، والأمية المعرفية من ناحية أخرى ـ إلى وسيلة للاسترخاء، أو العزوف عن الحياة.

هل أدعوكم إلى تأمل حال مناهجنا التعليمية فى المدرسة، وفى كثير من الجامعات، وجنايتها على مفهوم الشعرية، وعملها على تكريس المفاهيم التقليدية المكرورة فى النظرة الجمالية إلى الشعر؟ حيث الاهتمام بالمعنى لا بالدلالة، أو الدلالات الملتبسة والمراوغة، وحيث يصبح الاهتمام بالمعنى اهتماما بالساكن والثابت والمؤطر، والعجز عن اكتشاف تجليات الدلالة، إفقارا للنص، وعزلا له عن سياقاته، وتقديسا للنموذج، وإعلاء من شأن الموروث باستمرار.

أنتقل إلى النص الشعرى الراهن. لأتحدث عما أسميه: (زحام النصوص وفوضاها). بعد أن أفسح مناخ التجريب والمغامرة مساحة لفاقدى الوعى والموهبة. وجرأ من لا يمتلك بعض لسان على الاقتحام والتطاول. هذا الدخيل الشائه، أضر بالتيار الرئيسى فى حركة الشعرية المعاصرة على مستوى قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر. هذا الزحام والفوضى والاختلاط، جاء بعد زمن طويل من سيطرة النص الواحد، وتحكمه فى الذائقة العربية منذ كان الكلام عن عمود الشعر، ثم عن الحداثة والمحدثين فى العصر العباسى. وظل هذا التحكم قائمـا ـ من خلال تجليات وصيغ شتى ـ حتى منتصف القرن العشرين. وظلت أصداؤه وانعكاساته تتردد، وتتماهى فى نصوص شتى. وها نحن نرى الآن ـ من بين من يخشون الغلو فى التجريب والمغامرة، والوصول إلى درجة الخيط الرفيع بين القصيدة الحديثة، وجماليات الشعر العربى، وهتك الدلالة اللغوية ـ من يدعون إلى عودة النص الواحد بشرعيته المقدسة. وهم ـ فى حقيقة الأمر، ومن موقع رد الفعل المبالغ فيه ـ

يريدون عودة اللغة إلى المعجم وإلى القاموس، بعد أن جاهد المبدعون طويلا فى إخراجها منهما، وتذويبها فى نسيج الحياة وفضاء الدلالات.

تبقى قضية القضايا بالنسبة للنص الشعرى الراهن. وهى: علاقة الذائقة العربية بالإيقاع. الإيقاع فى رأيى شىء أكبر من الوزن ومن العروض، والوزن الشعرى صورة أو حالة من حالات الإيقاع. لكن، يبقى أن يقدم لنا أصحاب الحديث عن الموسيقى الداخلية والإيقاع الداخلى مرجعية يتم على أساسها التمييز بين الجوهرى الأصيل، والزائف المدعى. إن النص الراهن يؤدى إلى خلخلة بنية إيقاعية تشكلت وتطورت عبر عصور القصيدة. وقد تعددت درجات الخلخلة بحسب القدرة على الهضم والتمثل والتجاوز، أو فقدان القدرة على التغيير والاختلاف. الأمر الذى جعل البعض ينظر إلى هذا النص باعتباره نصا ناقصا، بينما يقدمه المتحمسون له باعتباره البديل الراهن والمستقبلى الوحيد. وهو أمر تنفيه طبيعة الإبداع، التى تتأبى على القوانين والتنبؤات، والتى تدهش بخروجها على المألوف والمتوقع، والتى ترى دائما نصوصا متعددة لشعر متعدد، لا نصا واحدا لشعر مكرور.

إن الخطر على الشعر الآن، لا يجىء من خارجه، أى من الفضاءات المحيطة به، أو من علائقه الاجتماعية أو المجتمعية، أو وضعه فى مقارنة مع أجناس أدبية أخرى، وإنما هو خطر يجىء من داخله، أى: من أصحابه الذين بخسوه حقه من الاهتمام والتبجيل، باعتباره: التعبير الجمالى الأشمل والأكمل عن الإنسان، ولم يحلقوا إلى مدى فضائه الكونى الذى لا يسمح بالتحليق فيه لغير من استصفاهم هذا الفن الجميل، فتخلصوا من أوزار التبعية فى كل صورها: (الأيديولوجية والسياسية والدينية... وغيرها) واستطاعوا الانعتاق نحو المجهول، ليبدعوا الشعر الأصفى، الشعر الشعر، وهذا هو سؤال الشعر.

* * *

الشعر إنقاذ.. والشاعر منقذ

"**لقد** آمنت ـ طوال رحلتى مع الحياة والمعرفة والكتابة ـ بأن الشعر: (إنقاذ) وأن الشاعر: (منقذ)، وأن نجاة البشرية ووحدتها وسلامها ـ لاسيما فى أوقات المحن وعند نقط التحول الحاسمة ـ كامنة فيه على الدوام. وكم أعطيت لحكماء وشعراء قدماء ومعاصرين من وقتى وجهدى وحبى. من: "إيب ـ أور" وتحذيراته المشهورة فى أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد بعـد انهيار الدولة القديمة فى مصر، إلى حكماء بابل والصين واليونان، إلى شعراء عرب ـ من "زهير بن أبى سلمى" إلى: "أمل دنقل وصلاح عبد الصبور". وقد تصادف العمل فى هذا الكتاب مع المآسى التى داهمتنا منذ الهجمة الهمجية الأخيرة لدولة الإرهاب الإسرائيلى، التى أيقظت فى وفى كل عربى الإحساس الفاجع بالعجز والإذلال والـمهانة، مع الوعى النهائى بضرورة التغيير والعمل الجدى الحاسم والأمين، للسير على طريق النهضة، والمقاومة الصامدة لكل ما يعوق تقدمنا الذى لا بديل عنه إلا التهميش والانقراض".

هذه السطور تحملها مقدمة كتاب بديع عنوانه: (للحب والحرية): **أزهار من بستان الشعر الغربى قديمـا وحديثا** ترجمها وقدم لها عالم الفلسفة والناقد والكاتب القصصى والمسرحى الدكتور "عبد الغفار مكاوى"، وصدر الكتاب ضمن المشروع القومى للترجمة عن المجلس الأعلى للثقافة.

والدكتور "عبد الغفار مكاوى" ـ فى مرآة نفسه ـ كاتب حر، وأستاذ سابق

للفلسفة بجامعات القاهرة والخرطوم وصنعاء والكويت. من مواليد عام ١٩٣٠، تخرج فى آداب القاهرة سنة ١٩٥١، وحصل على دكتوراه الفلسفة والأدب الألمانى الحديث من جامعة فرايبورج سنة ١٩٦٢. ومن أبرز كتبه: النقد ـ قراءة لقب أفلاطون، قصيدة وصورة، مدرسة الحكمة، نداء الحقيقة، لم الفلسفة؟، البلد البعيد، "هلدرين"، ثورة الشعر الحديث من "بودلير" إلى العصر الحاضر.

ومن مجموعاته القصصية: ابن السلطان، الست الطاهرة، الحصان الأخضر يموت على شوارع الأسفلت. ومن أهم مسرحياته: من قتل الطفل؟، زائر من الجنة، "بشر الحافى" يخرج من الجحيم، دموع "أوديب"، محاكمة "جلجاميش". ومن ترجماته: ملحمة جلجاميش، الرسالة السابعة "لأفلاطون"، دعوة للفلسفة، تأسيس ميتافزيقا الأخلاق "لكانط"، ثلاثة نصوص عن الحقيقة "لمارتن هيدجر"، الديوان الشرقى "لجوتة"، الأعمال المسرحية "لجورج بشنر"، قصائد من "بريشت وأنجارتى"... وغيرها.

نحن إذن فى هذا الكتاب، أو البستان الشعرى الغربى كما وصفه صاحبه، مع عالم وأستاذ وفنان، يتوهج وجدانه بكيمياء الشعر، وتفيض لغته بمائه، وله من إحساسه الموسيقى فضل تحويل ترجمته إلى نصوص شعرية عربية، لا تخطئ الأذن إيقاعها، حتى لو تخلت عن العروض، فموسيقاها الداخلية تتدفق وتنساب وتجيش وتحتدم مؤازرة روح الشعر، وحاملة بهاءه التعبيرى والتصويرى. وهو يقوم على هذه الترجمة الرفيعة، واعيا بمقولة "الجاحظ" القديمة: "إن الشعر لا يترجم"، ومقولة "نزار قبانى": إن الشعر نار والترجمة رماد. مؤمنا بأن: ما نكسبه من هذه الترجمة لا يقل عما نخسره، وأن من لم يكن شاعرا فى لغته أو مسكونا بروح الشعر إلى حد العشق أو الجنون، ففى الترجمة النثرية الأمينة والحساسة ما يشبع أشواق محبى الشعر، ويلبى طموحهم إلى الإبداع الترجمى الذى يلتحم فيه العلم والفن والدقة والذوق المرهف.

يضم كتاب: (للحب والحرية)، ما يقرب من مائتى قصيدة ومقطوعة منظومة،

ترجمت إلى العربية شعرا، مع تعليقات وشروح مستفيضة، عن أكثر من أربعين شاعرا وشاعرة، طبعوا مسيرة تراث الشعر الغربى، وأثروا فى بعض تحولاته الأدبية والشعرية المهمة. من القرن السادس قبل الميلاد حتى أوائل الثمانينيات من القرن العشرين، وذلك منذ العصر اليونانى القديم، وبداية الشعر الغنائى عند "سافو" و"ألكايوس" مرورا بالعصر الوسيط وعصر النهضة، وعصر الباروك الذى ازدهر فيه شعر الحكمة التعليمى فى القرن السابع عشر، إلى شعر التجربة الباطنة فى القرن الثامن عشر. لاسيما من شعر "جوته" الذى يقدم الكتاب عددا من أعذب قصائده فى ديوانه الشرقى للمؤلف الغربى، حتى بعض رواد الحداثة فى القرن التاسع عشر، وعدد كبير من أعلام الشعر العاطفى والتأملى والسياسى فى القرن العشرين ممن لا يزال بعضهم أحياء يرزقون ويبدعون.

ولأن التواضع الجم من سمات "عبد الغفار مكاوى" ـ المبدع الكبير ـ فهو لا يزيد على أن يسلك نفسه من خلال خطوة يصفها بأنها متواضعة فى ترجمة الشعر إلى العربية، ترجمة مكافئة للأصل بقدر الإمكان، فى سلسلة الرواد الكبار فى ترجمة نماذج من الشعر الشرقى، مثل: "عبد الوهاب عزام وحسين مجيب المصرى وعبد الخالق فاضل والنجفى وأحمد رامى"... وغيرهم. ومن الشعر الغربى بدءا من: "سليمان البستانى وأحمد شوقى" ـ مترجم قصيدة البحيرة "للامرتين" والعديد من قصائد "لافونتين" ـ و"العقاد والمازنى والسياب ونازك الملائكة وفوزى العنتيل ومحمد البخارى ومحمد عنانى وأسامة فرحات"... وغيرهم. محاولين على قدر استطاعتهم وثقافتهم ومواهبهم حل معضلة ترجمة الشعر، وإثبات أنها ليست مستحيلة.

من الواضح، إعجاب "عبد الغفار مكاوى" الشهير "بجوته"، وهو الذى سبق له ـ منذ أربعة عقود ـ دراسة بعض أشعاره فى كتاب: (البلد البعيد) فضلا عن ترجمة عدد كبير من قصائد الديوان الشرقى للشاعر الغربى (اثنتين وثلاثين مقطعة). وهو يرى: "أن الجانب الأعظم من شعر "جوته" يتدفق على نحو طبيعى وتلقائى من

نبع تجاربه الوجدانية والباطنية العميق، والقليل منه يقدم فكره ورؤيته للعالم والإنسان أو حكمة شيخوخته وذكريات ماضيه، وهو يسع جميع أغراض الشعر وأساليبه وأشكاله: من قصائد الحب الدافئة المتوثبة والأغنيات العاطفية وقصائد الفنانين والأناشيد والمرثيات المطولـة والحكايات الشعرية (البالادات)، إلى القصائد المكثفة (الإبجرامات) والمعارضات التهكمية اللاذعة وقصائد المناسبات، والحكم، والتأملات المنظومة والقصائد الفلسفية التى كتبها فى سن الشيخوخة".

يقول "جوتـه" فى ترجـمة "عبد الغفار مكاوى" من كتاب: (زليخا): على لسان زليخا:

حين أكون بعيدا عنك فما أقربنى منك
يعرونى الهم، يداهمنى فيض عذاب
عندئذ أسمع صوتك يتردد بعد غياب
فأراك وقد عدت إلى وعدت إليك!

*** * ***

قالت المرأة: إنى فاتنة
حزت آيات الجمال
قلتمو: إن الليالى خائنة
سوف يطويك الزوال
كل شىء خالد فى عين ربى
فاعبدوه الآن فيا
هذه اللحظة حسبى!

*** * ***

لا تدعنى هكذا لليل وحدى، للكدر
يا أحب الناس عندى

أنت يا وجه القمر
شمعتى أنت وشمسى
آه يا نور البصر!

* * *

رائع كالمسك أنت
حيثما كنت يفوح العطر منك
وتشى الأنفاس بك!

* * *

فى منتصف الليل بكيت، نشجت
لأنى احتجت إليك
شعرت بحرمانى منك
عندئذ جاءت أشباح الليل
فخفت، خجلت
ناديت عليها، يا أشباح الليل!
ها أنت ترين دموع العين
وكم طوفت على
وكنت غريقا فى حضن النوم
إنى أفتقد الخير كثيرا، كل الخير
بربك ألا أحسنت الظن وأقللت اللوم
من أضفيت عليه قديمـا ثوب الحكمة
حل عليه الكرب ونزل الشؤم
عبرت أشباح الليل

obeikandl.com

ومرت كالحة الوجه
لم تحفل بى، إن كنت حكيمـا أو أحمق
يعوزنى الفهم!

* * *

إن قدر الدهر يوما
بالنأى عمن تحب
وصار بعدك عنه
كبعد شرق وغرب
يهيم عبر الفيافى
فؤادك المشتاق
ما من رفيق سواه
إن عز فيها الرفاق
بغداد ليست بمنأى
عن أعين العشاق

يؤمن الدكتور "عبد الغفار مكاوى" بمقولة الشاعر الألمانى "بريشت" فى إحدى قصائده: "الشىء الوحيد الذى يجب عليك أن تتأكد منه هو أنك ستسقط حتمـا عندما تكف عن المقاومة" وهو يرى أن الشعر ـ فى صميمه ـ مقاومة، فقد كان الشعر الحقيقى على الدوام نوعا من المقاومة لكل أشكال القبح والتشوه والظلم والاستبداد، وكان ـ وسوف يظل ـ غناء وتـمجيدا للحياة والجمال والإنسان. فالشعر ـ كما قال "إيلوار": "عون على الفعل، وأسلوب للمقاومة والعمل والتغيير، وزرع الحقيقة نفسها فى قلب الواقع اليومى والعملى لكل الناس".

وهو يرى ـ فى ترجمته وتقديمه لهذه المختارات ـ دعوة لشعرائنا أن يرتفعوا إلى مستوى الموقف الراهن وتبعاته، وهو الموقف الذى يسميه: نقطة التحول: نكون أو

obeikandl.com

لا نكون. متمنيا لهم أن يلهموا القدرة على الغناء الوجدانى تعبيرا عن (الأنا) وقد اتحدت (بالنحن)، بعيدا عن طوفان الثرثرات النقدية والتجارب النرجسية والعشوائية، حتى يمكنهم أن يسهموا ـ ولو بنغمة واحدة ـ فى الـجوقة المأمولة والنشيد الجماعى المنتظر.

وهو هدف يكشف عن نبل التوجه، وعظمة الرسالة التى من أجلها كان هذا الكتاب البـديع، لواحـد من أنبل مبـدعينا ومثقفينا وحراس ثقافتنا: الـدكتور "عبد الغفار مكاوى".

* * *

obeikandl.com

الفيتورى.. نموذجا

الناقد والكاتب المغربى "بن عيسى بوحمالة" يتيح لنا فرصة جديدة لإعادة قراءة الشاعر السودانى الليبى المصرى الكبير، من خلال دراسته الجديدة عن شعره التى تحمل عنوانا دالا هو: (النزعة الزنجية فى الشعر المعاصر: "محمد الفيتورى" نموذجا). الكاتب يستخدم مصطلح (الزنجية) مرادفا للدلالة الاثنية واللونية والثقافية لكلمة (السواد). كما يستعمل كلمتى: (الزنوج) و(السود) للدلالة على الجنس الأسود الموزع بين إفريقيا وأمريكا. ثم هو يتكئ فى دراسته على المجموعات الشعرية الثلاث الأولى للفيتورى وهى: أغانى إفريقيا، عاشق من إفريقيا، اذكرينى يا إفريقيا، بالإضافة إلى مسرحيته الشعرية: أحزان إفريقيا. الأعمال الأربعة تتكرر فيها لازمة (إفريقيا) فى العنوان، وفى المضمون الشعرى، وفى وضع الإنسان الأسود فى مواجهة الأبيض. وبالتالى مواجهة الاسترقاق والاستعمار والتمييز العنصرى، ومتطلبات الحرية والتحرير والثورة والوضع الإنسانى. ويلفت نظر الباحث المغربى أن الشعر السودانى المعاصر، وبخاصة شعر الجيل الذى ينتمى إليه "الفيتورى": "محيى الدين فارس وتاج السر الحسن وجيلى عبد الرحمن" يضج بأصداء هذه النزعة الزنجية، وأن الشعر السودانى المعاصر هو الوحيد الذى يجمع ـ فى توازن ـ بين الولاء للعروبة، والولاء للزنجية.

"محمد الفيتورى" مبدع كبير، بـل هو ظاهرة شعرية استثنائية، غير قابلة للتكرار، ينطوى قدره الإبداعى على حدين مسنونين، أولهما: أنه حقق ـ بطلقته

الشعرية الأولى وهى ديوانه: (أغانى إفريقيا) الذى نحتفل الآن بأكثر من نصف قرن على صدوره[1] ـ موقعا له على القمة، لم تتطلب رحلته الشعرية خطوات طويلة للوصول. ولد "الفيتورى" وفى فمه شعره الذهبى، تماما كما ولد "يوسف إدريس" فى مجموعته الأولى: (أرخص ليال) فى الزمن التاريخى نفسه، وفى يده قلمه الذهبى وقصته القصيرة المتجاوزة. وثانى هذين الحدين: أن مسئولية الميلاد والبدء من القمة ظلت تطارد "الفيتورى" حتى اليوم، تطالبه بالصعود المستمر، والتجاوز الدائم فى مساره الشعرى. وهو ما حقق كثيرا منه بالفعل، عندما (تطهر) من مرحلة الزنوجة أو الزنجية، وانفتح على مجال وطنى وقومى وإنسانى أرحب، وعندما أتيح له أن يصغى لروافد صوفية عميقة فى جذوره ومكوناته الأولى، فتلونت قصائده فى دواوينه الأخيرة بأنغام وصور وتجليات، تتشابك فيها رؤى العالم الرحب الذى تتحرك فيه المشاعر بين العديد من عواصم العالم العربية والأجنبية، والتنويعات الثقافية التى تفاعل معها حيثما أقام، وإن بقيت الأصداء الإفريقية البعيدة تمثل: إيقاعات الطبول البعيدة فى خلفية المشهد الشعرى الراهن "للفيتورى".

"الفيتورى" الذى كان يصرخ ـ بأعلى درجات الصوت حدة وضراوة ـ فى الخمسينيات:

قلها، لا تجبن، لا تجبن
قلها فى وجه البشرية
أنا زنجى وأبى زنجى الجد
وأمى زنجية
أنا أسود، لكنى
حر أمتلك الحرية

(١) صدر الديوان فى القاهرة عام ١٩٥٥.

أرضى إفريقية، عاشت
أرضى، عاشت إفريقية

هو الذى تحول فى (معزوفة لدرويش متجول) إلى هذا النغم الشعرى المغاير:

فـــى حـــضرة مـــن أهـــوى عبثـــت بـــى الأشـــواق
حـــدقت بـــلا وجـــه ورقـــصت بـــلا ســـاق
ورحمـــت برايـــاتى وطبـــولى العـــشاق
عـــشقى يفنـــى عـــشقى وفنـــائى اســـتغراق
مملوكـــك لكنـــى.. ســـلطان العـــشاق

ولم تـخل رحلته الشعرية ـ على امتداد مسيرته ـ من ردود أفعال نقدية، فى طليعتها الدراسة النقدية التى أنجزها الناقد والمفكر الكبير: "محمود أمين العالم" وتصدرت المجموعة الشعرية الأولى: (أغانى إفريقيا)، والتى كانت بمثابة مطالبة "الفيتورى" بمواجهة ضرورية مع الذات. (فهو ـ فى رأى العالم ـ يعكس مأساته الخاصة على العالم، ويصوغ لنفسه ـ لون بشرته، ومن إحساسه العميق بالمرارة والحقد ومن طبول الذكر ـ وطنا نائيا بعيدا هو إفريقيا، وعلاقته بهذا الوطن البعيد علاقة انفعالية خالصة، "فأخذ يلونها بلون مشاعره، ويوحد تاريخه، وتاريخها، ويخلع عليها مأساته الخاصة ويبشر من خلالها بخلاصه المنشود). وصولا إلى المرحلة التى خفف فيها الشاعر من الغنائية (التى تثب أحيانا إلى حد الخطابة). لم تعد الغنائية هى القيمة الأولى للتعبير، بل أصبحت أداة لإبراز الدلالة، ولم تعد المعركة معركة إفريقيا وحدها، لم تعد معركة لونية، بين أبيض وأسود، بل أصبحت ـ فى رأى العالـم أيضا ـ معركة قيم إنسانية عامـة، معركة بـين الاستعمار والشعوب، بين الطغاة والأحرار الثائرين. وليس "العالم" بالناقد الوحيد الذى استوقفه البركان الشعرى الهادر المسمى "بالفيتورى". هناك كثيرون احتضنوا هذه

الموهبة الشعرية الطاغية منذ طلقتها الأولى: "كامل الشناوى وزكريا الحجاوى ورشدى صالح ورجاء النقاش"... وغيرهم. ودارسون من مصر والعالم العربى قدموا عنه دراسات ضافية ـ بعضها كتب مستقلة ـ "محمد مصطفى هدارة ومفيد قميحة ووفيق خنسة ومحمد السرغينى وعبده بدوى" ـ فى دراسته عن الشعراء السود وصلاح فضل، صلاح الدين المليك وكمال عيد ورشيدة مهران وميشال شيحة وومنيف مرسى".

وأمثال "الفيتورى" من كبار الموهبة، وأصحاب القدرة الفذة على التعبير والتصوير ـ وإن كانوا قلة نادرة ـ هم الذين يقنعون القارئ العربى ـ اليوم ـ بأن الشعر العربى لا يزال بخير، وأن بحيرة الشعر الواسعة ـ بالرغم مما يلقى فيها كل يوم من مخلفات وفضلات وسموم وجهالات وادعاءات ـ لم تتكدر بكاملها، ولم تنفق أحياؤها المائية، وكائناتها الجميلة الباهرة.

* * *

رسالة من وراء الأسوار

الرسالة وصلتنى ـ وقد تأخرت كثيرا ـ تعقيبا على ما كتبته منذ شهور عدة، حول بعض شعراء القصيدة العمودية الذين كتبت عنهم تحت عنوان: (شعراء يسبحون ضد التيار). وكان من بينهم الشاعر المبدع والباحث الجاد: "الحسانى حسن عبد الله" الذى استوقفه العنوان. وقولى: إن الشعر الحر أكبر حركة تجديدية فى تاريخ الشعر العربى، وأهم انعطافة إبداعية ونفسية فيه، وإنه بقى مستمرا، بالرغم مما أعلنه "الحسانى" ـ منذ أكثر من ثلاثين عاما ـ أنه لم يوجد ليبقى، متخوفا آنذاك من زحف الركاكة، وابتعاد الشعر العربى عن مسيرته الحقيقية.

ولأن الرسالة تحمل وعيا يقظا وفكرا عميقا وغيرة محمودة لها ما يبررها، فإنى أستأذن صاحبها فى نشر ما جاء فيها باعتباره: قضية تستحق البحث والمناقشة.

يقول الصديق الكريم فى رسالته: "عندما نويت أن أكتب إليك تعقيبا على مقالتيك، لم أكن أضمر ـ بعد الشكر ـ إلا أن أعرض لبعض توقفات فيهما، لكن القلم جرى كما ترى ـ كأنه مسير ـ نحو الهم العام. وعلى الآن أن أكبح جماحه إذا أردت الانصراف إلى الغرض المنوى، لكن هذه الانحرافة تدعونى ـ أو قل تدعونا ـ إلى التساؤل عما أملاها، شىء ما أجبرنى على تغيير الوجهة، ربما أفاد استجلاؤه.. ولنبدأ ـ لأن أول العلم البصر ـ من الحقائق الواقعة. ما الذى جرى فى ثلاثين عاما بعد تخوفى من زحف الركاكة؟ يجيب الواقع فورا: ازداد زحفها حتى عمت الشكوى إذ عمت البلوى، وحتى بان لكل ذى بصر أن اللغة تنحط، وأن التعليم

ينحط، وحتى فرضت المشكلة نفسها على مجلس الوزراء، وعلى ولى الأمر، وحتى ظهر فينا من ينادى بإسقاط "سيبويه" وإقرار الخطأ، وتحريف النحو، تجاوبا مع (ريح الشمال) ـ غفر الله "لحافظ إبراهيم" غرارته ـ ومع دعوة الذين عينوا أنفسهم أوصياء علينا إلى إصلاح هو فى مآله عين الإفساد.

أجبرنى على تغيير الوجهة أنه لا شىء معزول، ولسنا فى حاجة إلى أن نكون أساتذة فى علم الاجتماع؛ لنوقن بترابط الظواهر وإفضاء بعضها إلى بعض مع ما بينها من فروق، لا يصدر شىء من لا شىء والنار العظيمة أولها شرر. هذه البديهية التى تؤكدها الحقائق الواقعة هى التى أملت على (البيت الأبيض) التقرير الرئاسى المشهور: (أمة فى خطر)، وهى التى أملت على الجمعية الوطنية الفرنسية سن قوانين خاصة بحماية الفرنسية الفصحى، وهى التى أملت على خلفاء بنى أمية قديما تربية أبنائهم زمنا فى البادية اكتسابا للعربية الفصحى. أذكرك بكلمة "عبد الملك بن مروان": (شيبنى خوف اللحن) وهى التى أملت على تخوفى من زحف الركاكة قبل ثلاثين عاما، وهى التى أملت على الآن أن أستهل كلمتى إليك مسوقا ـ كأنى مسير ـ للكلام فى الهم الممض، الجحيم الحديث المساقط علينا من سماوات الشمال يسعره لدد قديم، وسعى ملح إلى إفساد العقل العربى يتولاه أهل الثقافة وأهل السياسة معا. لا غرو، فلا شىء معزول، برغم تميز الأشياء بعضها من بعض: هنا لغة. هنا شعر. هنا مسرح. هنا أغان. هنا تجارة. هنا حرب. والخطة سهلة: تشتيت النظر حتى لا نرى وجوه الشبه بين ما يجرى هنا وما يجرى هنا.

كأنى اقتربت مما فى مقالتيك بشأن قضية الشعر الحر.

تقول إنى أسبح ضد التيار لا بأس. وماذا فى هذا! أخشى أن يظن ظان: أنك أردت أن المضادة فى ذاتها عيب. ذلك معنى ـ هو يقينا ـ غير مراد لك. لأنك يقينا تعلم أن المعول على سداد الحجة. لماذا أنت (مع) ولماذا أنت ضد، فما الحجة؟

تقول: إن الشعر الحر أكبر حركة تجديدية فى تاريخ الشعر العربى كله، وأهم انعطافة إبداعية وحضارية ونفسية فيه. مرة أخرى أخشى أن يظن أنك أردت أن التجديد فى ذاته فضيلة. ذلك معنى ـ هو يقينا ـ غير مراد لك. لأنك ـ يقينا ـ تعلم أن العبرة بدواعى التجديد وأغراضه وموجباته والمزايا الحاصلة به والخوض فى هذا يلزمه ـ بطبيعة الحال ـ مجال أوسع.

وتقول: إن الشعر الحر بقى برغم قولى: إنه لم يوجد ليبقى.

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب مجرد الوجود دليلا على استحقاق الوجود. أذكرك بقولى فى مستهل (البيان): إن الشعر الحر (انتصر). تلك حقيقة واقعة رأيتها منذ ثلاثين عاما، قبل أن يتكلم النقاد ـ كما تقول ـ عن شعراء الثمانينيات والتسعينيات، ومطالع القرن الحادى والعشرين. لكن تلك الحقيقة الواقعة المقررة هى أول المطاف لا نهاية المطاف. إذا كان مقدرا للشعر الحر أن يبقى، وإذا كنت أخطأت إذا رأيت أنه لم يوجد ليبقى، فلن يبقى ـ البقاء الدائم لا الطارئ ـ إلا بمنطق قوى وحجج مقنعة، وجهد علمى نزيه، لا يوجهه هوى. ونقد أدبى جاد يعرف كيف ينفى (اللبلاب) ويستبقى الجدير بالبقاء، لا نقد بلغ به فساد الذوق أحيانا أن يدخل فى الشعر ما ليس بشعر حر ولا شعر غير حر، بل ربما ما ليس بكلام أصلا. إذ شرط الكلام كما نص "ابن مالك" فى أول الألفية أن يكون (لفظا مفيدا) ولا نقد بلغ به العمى أن يدعو إلى ترك نظام العروض العربى بتة الذى يقوم عليه الشعر العربى كله ـ تقليديا أو حرا ـ إلى ما سماه اللغويون المحدثون: (النبر) ترجمة للكلمة الإنجليزية: Stress، وهو الخاصة المميزة للعروض الإنجليزى وللإنجليزية نفسها قبل العروض. ودعنا من ذكر الأسماء.

وتقول: إن التراث الذى أخشى أن ننقطع عنه حى بنا وفينا "إذ ليس له وجود خارج عنا، بل هو متجدد وفاعل فيما نبدعه اليوم، وإن اتخذ أشكالا مغايرة، فكيف يقتلع إنسان نفسه من الجذور، ويزعم لنفسه وللآخرين أنه لا يزال شجرة حية قادرة على الإنبات والإثمار" تلك نيتك أنت. ولكل امرئ ما نوى.

زعم الداعى إلى النبر: أنه يريد للشعر العربى الانطلاق إلى آفاق لا تبلغ إلا بالنبر. وهو إذن حسن النية، يريد للشجر أن يحيا. أما أنا فأشك. ويحق لى أن أشك إذا رأيت جهلا بواحا وحماسة هائلة لإقناع الناس بما يضلهم ويفسد أذواقهم. تريد أن تقول: إن الماضى قائم فينا بالضرورة، لا مناص من قيامه على نحو ما. وإذا كان الشعر الحر وجها من وجوه قيامه فينا، فخشيتى إذن بلا موجب. وددت ـ كما وددت أنت ـ ألا يكون هناك خطر، لكن العبرة ليست بالأمانى، إن ما تراه ـ ضرورة ـ لا العقل يحكم بلزومه ولا الواقع.

لا يحيل المنطق حصول الحقيقة، ويشهد التاريخ على حصولها أحيانا.

أين اللاتينية ـ على سبيل المثال ـ إذا اكتفينا بلغة واحدة من اللغات البائدة!

"متجدد وفاعل فيما نبدعه اليوم". صدقت، لا جرم. لكن انظر، حيالك طرفان، مشتبك أحدهما بالآخر، داخل فيه على نحو ما. ونحن، والعبرة بما (نبدعه اليوم) هنا مربط الفرس: ما الذى نبدعه؟ هل الذى يبدعه "ابن تيمية" كالذى يبدعه "ابن عربى"؟ إذا كان التراث فاعلا فنحن أيضا فاعلون. بل نحن الطرف مناط الاعتبار. ماذا نقرأ؟ وكيف نقرأ؟. كيف نتلقى؟. والواسطة بيننا وبينه اللغة، فإذا ضعفت ـ أو قل ضعفنا ـ كشأننا هذه الأيام ـ اختل التفاعل، ولم تنتج المعادلة ما يرجى أو ما لا ينبغى، متفائل أنت. لا بأس، كل ذى غيرة كذلك. لكن ليس حسنا أن نطمئن، كل ما حولنا يدعو إلى القلق. والواجب أن نستجيب للقلق لا أن نهرب منه، الواجب أن نراقب، أن نرصد، أن نفحص، أن نتوجس، أى فى كلمة واحدة، أن نعلم، وأن نكون ـ كما قلت أول الشباب ـ ذوى (إرادات يقظة).

وليأذن لى الصديق الكريم ـ بعد نشر رسالته كاملة ـ بأن أؤكد له أن تفاؤلى ما يزال، بالرغم من كل الظواهر السلبية التى تسود حياتنا الثقافية والأدبية والعلمية،

وفى مقدمتها: حياتنا التعليمية فى المدرسة والجامعة، فما يزال فى عروق هذه الأمة بقية من اعتزاز وشموخ وكبرياء، ووعى بحقيقة الخطر المحدق، ويقين بحتمية التغيير الذى لابد أنه قادم.

* * *

obeikandl.com

قصيدة لكل زمان

هذه (قصيدة لكل زمان) أبدعها "المتنبى" شاعر العربية الكبير، وأودعها خلاصة رؤيته للحياة، والزمن والناس. وهى خلاصة تقطر مرارة، وأسى، ومعاناة. لكنه الأسى الذى لا يؤدى إلى اليأس، ولا يفضى إلى الشعور بعدمية الحياة، أو الاستسلام إلى الموت. و"المتنبى" الحكيم لا يطلعنا فى شعره ـ عادة ـ على التفاصيل التى أوصلته إلى منطق الحكمة، وذروة التأمل. بل هو يتجه إلى النفس الإنسانية مباشرة: يباغتها ويوقظها ويعريها، مقدما صدمته الكاشفة، وطعنته النافذة إلى الصميم.

وديوان المتنبى يحدثنا فى هوامشه: أن القصيدة من إبداعات المتنبى وهو فى مصر، مستوحشا ومتوحدا بعد أن يئس من وعود "كافور" وتسويفه، وبدأ يقلب النظر والرأى فى الحال التى أصبح عليها بعد أن ركب خيل الأمانى، وامتطى صهوات الأحلام، وظن أن المجد الذى يخايله قاب قوسين منه. وهو الذى ضيع أغلى سنوات العمر، مطاردا سرابا خادعا، ومنتظرا أملا لا يتحقق، بحثا عن عرش زائف، هو عرش الحكم والولاية. وهو لا يرى عرش الشعر الأعظم، الذى أجلسته عليه عبقريته الشعرية، وسعى العرش إليه من دون كل شعراء زمانه الكبار، ولو تحقق له عرش الولاية، لخسر الشعر شاعره الخالد، وقصائده التى تخاطب كل زمان.

يقول المتنبى فى قصيدته التى لم ينشدها بين يدى "كافور"، ولم يذكره فيها، فلم

يقيدها بزمن أو حادثة:

صـــحب النـــاس قبلنـــا ذا الزمانـــا

وعنـــاهم مـــن شـــأنه مـــا عنانـــا

وتولـــوا بغـــصة كلـــهم منـــه

وإن ســـــر بعـــــضهم أحيانـــــا

ربمـــا تحـــسن الـــصنيع ليالیـــه

ولكـــــن تكـــــدر الإحـــــسانا

وكأنـــا لم نـــرض فينـــا بريـــب الـــدهر

حتـــى أعانـــه مـــن أعانـــا

كلمـــا أنبـــت الزمـــان قنـــاة

ركـــب المـــرء فـــى القنـــاة ســـنانا

ومـــراد النفـــوس أصـــغر مـــن أن

نتعـــادى فيـــه وأن نتفـــانى

غـــير أن الفتـــى يلاقـــى المنايـــا

كالحـــات، ولا يلاقـــى الهوانـــا

ولـــو أن الحيـــاة تبقـــى لحـــى

لعـــددنا أضـــلنا الـــشجعانا

وإذا لم يكـــن مـــن المـــوت بـــد

obeikandl.com

فمـــــن العجـــــز أن تكـــــون جبانـــــا

كـل مـا لم يكـن مـن الـصعب فـى الأنفـس

ســــــهل فيهـــــا إذا هـــــو كانـــــا!

هل كان يأس "المتنبى" من عطاء "كافور" ـ الذى لم يتحقق ـ وراء هذه القصيدة الشجية الأسيانة، وهل أوصله تقليبه للأمر على وجوهه إلى أن مراد النفوس، وكل ما تطمح فيه، هو فى حقيقته وجوهره أصغر من أن يقتتل الناس من أجله ويتفانوا؟ ولعله كان ـ وقتها ـ يدير فى رأسه خطة الخروج من مصر، والفرار من "كافور"، والنجاة من عيونه وجنوده.

الأمر إذن يتطلب شجاعة وقدرة على المغامرة. وهو على استعداد لملاقاة الموت وجها لوجه، لكنه يأبى الهوان والذل. الموت إذن أحب إليه من عيش غير كريم ومن حياة لا تلائم كبرياءه وعزة نفسه. إن ما نتصوره صعبا أو يتطلب قدرة خارقة، يصبح سهلا جدا وميسورا بعد حدوثه، ويدهشنا أن الوهم كان يصوره على هذه الدرجة من الصعوبة والاستحالة بينما هو ـ بعد أن تمتلئ به النفوس، وتتهيأ لملاقاته ثم تعمل لتحقيقه ـ لم يكن مستحقا لهذا الموقف المحاذر المتحسب.

لكن عبقرية "المتنبى" لم تجعل هذه القصيدة النادرة المثال فى شعره حبيسة العلاقة بين "المتنبى وكافور"، ولا سجينة فضاء تلك السنوات التى جعلته يراجع موقفه، ويصل إلى قراره بترك كافور والخروج من مصر. فقد أصبحت صرخة شعرية إنسانية لكل زمان، وطلقة فى وجه الجبن والهوان والتردد والمذلة، من منطلق صادق وواضح وبسيط جدا، يلمسه الجميع، فلماذا الخوف إذن من ملاقاته والهروب من مواجهته؟

ولو أن الحياة دائمة والخلود فيها متاح لكان الشجعان أضلنا عقلا، وأكثرنا طيشا ونزقا. وهو المعنى الذى تردد كثيرا فى شعر الشعراء الصعاليك، جلاء لحقيقة موقفهم الخارق الشجاعة فى مواجهة الموت، والذى لخصه أميرهم "عروة بن

الورد" فى قوله:

فـــإن فـــاز ســـهم للمنيـــة، لم أكـــن

جزوعـــا، وهـــل عـــن ذاك مـــن متـــأخر

وصوره "طرفة بن العبد" فى (معلقته البديعة) وهو يقول:

ألا أيهـــذا الزاجـــرى أحـــضر الـــوغى

وأن أشـهد اللـذات: هـل أنـت مخلـدى؟

فـــإن كنـــت لا تـــستطيع دفـــع منيتـــى

فـــدعنى أبادرهـــا بمـــا ملكـــت يـــدى!

والذى أبقى قصيدة المتنبى حية فينا حتى اليوم ـ تخاطبنا بوصفها من شعر هذا الزمان وكل زمان ـ أنها بفضل صياغتها الشعرية المحكمة قبضت على أحد مفاتيح النفس الإنسانية الـمهمة، فى مواجهتها للموت، وانتصارها عليه بوعيها أنه حقيقة لا إنكار لها، وقضاء لا مفر منه. فلم الخوف والخشية والتردد والجبن، والرضا بالهوان إذن؟

وإذا لم يكـــن مـــن المـــوت بـــد

فمـــن العجـــز أن تكـــون جبانـــا

كلمات باقيات للمتنبى، أقدمها إلى كثيرين يدفعهم الجبن إلى العجز، فى مواجهة صنوف شتى من البطلان والتخلف والفساد، وتغيب عنهم عظة الحياة وحكمتها، المتمثلة فى أنه: لا يوجد على وجه الأرض ـ من سراب الأمانى المخادع ـ ما يستحق العداء والاقتتال من أجله، لأن الذى يستحق هو: صون الكرامة والشرف، وإعلاء راية العزة والكبرياء، واستقبال القضاء حين يصبح محتوما بمواجهته الشجاعة، لا بهوان العاجز الجبان.

* * *

الشعراء والسلطة

صدر حديثا هذا الكتاب البديع للشاعر والباحث والمسرحى وكاتب الأطفال: "أحمد سويلم"، الذى يستهل كتابه باقتباسات من شعره وشعر "معين بسيسو" و"عبد الوهاب البياتى"، هى بمثابة الإرهاصات الأولى، والكاشفة قبل الولوج فى عالم الكتاب المثير. يقول "بسيسو":

الصمت موت
قلها.. ومت
فالقول ليس ما يقوله السلطان والأمير
وليس تلك الضحكة التى
يبيعها المهرج الكبير
فأنت إن نطقت مت
وأنت إن سكت مت
قلها.. ومت

ويقول "البياتى":

الشعر أكذبه الكذوب
قالوا، وما صدقوا
لأنهم تنابلة وعور
كانوا حذاء للسلاطين الغزاة

بلا قلوب
يا شعر، حطم هذه الأوثان
واقتحم الخطوب
وتعال، نرتاد البحار
ونجتلى نجم الشعوب
أنا ذاهب كى أقرع الأجراس
كى أطأ اللهيب!

الكتاب ظاهر من عنوانه، وهو كما يصفه الناشر دراسة تحاول تحليل العلاقة الـمتوترة بين الشعراء والسلطة عبر تاريخ الشعر العربى، وتحولاته منذ أقدم العصور حتى عصرنا الـحديث. ذلك أن موقف السلطة يـؤثر على ما يبدعه الشاعر.

فالسلطة ـ غالبا ـ تمسك فى يدها خيوطا تتحكم بها فى ألسنة الشعراء، فيسود أحيانا الـمديح والنفاق والتكسب. وأحيانا أخرى نجد الهجاء السياسى عالى النبرة. وتارة يتحول المديح الشخصى إلى تفاخر بالأنساب والإنجازات والأمجاد. وتارة أخرى يصبح الشاعر لسان النقد الصادق. وفى عصور القهر قد تتعدد ألوان التعبير؛ فيلجأ الشاعر إلى التحايل أو الحيل الفنية؛ حتى لا يحاسب على صراحته وصدقه.

والكتاب فى جوهره، يذكرنى بقضية أدبية مهمة كانت تشغل الصديق الناقد الكبير الراحل الدكتور "عبد المحسن طه بدر"، هى ما يمكن تسميته: بجناية الإعلام على الشعر العربى. كان ذلك الانشغال فى مستهل الحياة الأكاديمية والنقدية للدكتور "عبد المحسن"، بعد نشره لدراسته المميزة (الشعر العربى والتجربة الإنسانية) فى مجلة الآداب البيروتية. لقد كان من رأيه أن انشغال الشاعر بدوره (الإعلامى) تعبيرا عن قبيلته وقومه، وولائه لهذا الالتزام والانشغال، قد

جنى على خصوصية الشاعر الفنية، وحرية الشاعر فى التمرد الفنى والقومى والاجتماعى والسياسى.

من هنا، كان شعر الصعاليك ـ فى رأيه ـ أوضح دلالة فى التعبير عن روح العصر الجاهلى من شعر المعلقات، كما كان الشاعر الصعلوك، المنسلخ من الولاء للقبيلة والقوم، أكثر حرية وجرأة وتمردا، بالمعنيين: الفنى والاجتماعى. كما أن الشعراء الذين انشغلوا بالدعوة الدينية: تأييدا أو رفضا، دفاعا أو هجوما، بهتت لديهم مساحة الإبداع الشعرى فى مقابل امتلاء شعرهم بتوابل الدعاية وما يتطلبه الإعلام، فى عصر كان الشعر هو جهاز الإعلام الأول فى قومه، بديلا عن الصحافة والإذاعة، وعن الدور الذى يقوم به المؤرخ فى زماننا.

كانت قضية الإعلام أو الدعاية ـ وما تفرع عنها من فنون شعرية: كالفخر والحماسة والمديح والهجاء ـ وتأثيرها على مسيرة الشعر العربى، وفنية القصيدة الشعرية العربية، منذ نشأة هـذا الشعر فى عصوره الأولى، كانت شاغلة لاهتمام الناقد الكبير الراحل الدكتور "عبد المحسن طه بدر" منذ أكثر من أربعين عاما، ونحن لانزال فى مطالع ستينيات القرن الماضى، وكان يرى من سلبيات هذا التأثير أو هذه الجناية ما يمكن تسميته بالمباشرة والخطابية، والمبالغة الممجوجة، والبعد عن الصدق الفنى فى الأداء الشعرى. الـمؤسف أن شواغله النقديـة والأكاديمية ـ فيما بعد ـ صرفته عـن متابعة هـذه القضية، والاهتمام بالكتابـة عنها وتعميق أفكاره بصددها.

ثم جاء كتاب شاعرنا "أحمد سويلم"، ليذكرنى بهذا الانشغال القديم، ولينقلنا نقلة أبعد من مجرد الجناية الإعلامية والتأثير السلبى للدعاية، إلى قضية (السلطة) وجنايتها على الشعر والشعراء. وإذا كانت أية سلطة فى جوهرها مفسدة: مفسدة لأصحابها أولا، ولمن حول أصحابها من الحاشية ثانيا، فإنها بسلاحى: الإغراء والوعيد تطلق وتقبض ألسنة الشعراء الذين يقعون فى الشرك، وينسون شرف

الشعر وكبرياء الشاعر وحقيقة دوره ورسالته، حين يتحول إلى مداح رخيص، أو هـجاء مبتز، وهو فى الحالين: فاقد لإنسانيته وحريته.

ومن أجمل فصول الكتاب: (وقفته المتأنية عند ظاهرة شاعر العربية الفذ "أبى الطيب المتنبى"، الذى اختلفت حوله الآراء، وبالتالى اختلفت النظرة إلى مدائحه وهجائياته للسلطة) فى مدائحه "لسيف الدولة الحمدانى" وهجائياته "لكافور الأخشيدى". لقد رأى المتنبى فى سيف الدولة النموذج والمثال للأمير الفارس العربى، الذى يحقق حلم الشاعر بأن يكون لهذه الدولة العربية الممزقة والمتناثرة إلى شظايا ودويلات، رمز من عروبة وبطولة، يقف فى وجه إمبراطورية الروم، ويفجر شاعرية "المتنبى" وحلمه القـومى فى زمن الانكسار والهوان. أما هجائياته "لكافور" ـ بعد مدائحه له، وهى مدائح مبطنة بالسخرية والتورية والغمز واللمز ـ فوراءها ـ بالإضافـة إلى خيبة الأمل فى "كافور"، وما كان يرجوه "المتنبى" من ضيعة أو ولاية ـ شعور المتنبى المتضخم بأنه الأحق بالإمارة والملك، وأنه من طينة الملوك، وإن كان لسانه لسان شاعر:

وفـــؤادى مـــن الملـــوك، وإن كـــان

لـــسانى يـــرى مـــن الـــشعراء!

وهو الساخر من "كافور" حين يقول فيه: ما ظاهره المدح وباطنه الغمز واللمز:

تفـــضح الـــشمس كلمـــا ذرت

الـــشمس بـــشمس مـــنيرة ســـوداء!

فى ثنايا هذه الدراسة ـ الجادة والكاشفة ـ يسجل الشاعر "أحمد سويلم" خلاصة نظراته المتأملة، فى أن الشعر كان هو مظهر الإعلام الوحيد فى العصور العربية الأولى، ومن ثم حرصت السلطة ـ مهما كان حجمها وقيمتها ـ على استمالة الشعراء إلى جانبها، وتجنب ألسنتهم المسنونة، وإطعام أفواههم، وحشو سراويلهم بالمال

حتى لا ينقلبوا عليهم. فالسلطة تدرك: أن بيتا واحدا يمكن أن يقلب عرشا ويزعزع سلطانا. فكانت تلجأ إلى المهادنة والتهديد إذا طال لسان الشاعر. وعندما فطن الشعراء إلى أهميتهم لدى السلطة، تنافسوا فى التقرب وبالمديح والمبالغة الزاعقة فى النفاق. وعندما طغى النظام الإقطاعى ـ فى العصر العباسى ـ طغيانا شديدا، شاع الثراء والترف فى قصور الحكام والأمراء والوزراء، وساد الفقر بين عامة الناس، فكان على الشعراء أن يمدحوا أصحاب السلطة ويكرسوها، حتى يتلقوا العطايا والهبات. وعندما سقطت بغداد على أيدى المغول، لجأ كثير من الشعراء إلى مصر المملوكية، وحاولوا التقرب إلى السلطة والتكسب منها، لكن الولاة لم يكونوا يشجعون الشعر والشعراء. فانصرف كثير من شعراء العصر المملوكى إلى احتراف حرف يتكسبون منها، فكان من بينهم: الجزار والكحال والخياط والدهان.

وفى عصرنا الحديث لم تعد مكاسب اليوم هى مكاسب الأمس.

وأصبحت الأقلام والأحداث والوجوه ـ فى وسائل الإعلام المختلفة ـ ترتكب من الجرائم أضعاف ما ارتكبه الشعراء قديمـا. فهذه أقلام تعلن الولاء الخالص للسلطة، وتزين ما تفعله. وهذه أقلام ترفع من شأن الوضع، وتبلغ بالقزم مكانة النجوم، وأصحاب هذه الأقلام يطمعون فى منصب أو مكانة اجتماعية أو سلطة من أى نوع.

ويدلى الشاعر بشهادته على جيل الستينيات من الشعراء، وهو الجيل الذى ينتسب إليه؛ باعتباره يمثل نقلة متميزة فى مسيرة الشعر العربى المعاصر. فقد كان ـ فى رأيه ـ جيلا شجاعا مواجها، لم يتخل عن حقن القصيدة بمزيد من عناصر الفن الجميل ومقوماته، ولقد تحمل عبء التحولات الزائفة وغير الزائفة وأثرها، وكان عليه أن يصرخ ويعبر ولا يصمت، وكان عليه أن يشارك أحيانا، ويتمرد أحيانا أخرى على هذه المشاركة عندما يكتشف ما وراءها من خداع وزيف.

"وأحمد سويلم" ـ الشاعر والباحث ـ يرى أن هذا الجيل: قد فتح للأجيال التالية عليه أبواب التجديد والتجريب والتحديث على مصاريعها. وربما استطاع هذا الجيل أن يفلت معظمه من عقاب السلطة، بما استحدثه من أساليب فنية، بعيدا عن المباشرة والتقريرية. فترك لنا تراثا فنيا جيدا مرتبطا بالواقع، لأنه عايش بصدق مراحل التطور والتخلف والتحول التى مر بها الوطن العربى، وكثير منه شارك فى الحروب التى وقعت فى المنطقة، وبذلك جاءت تجربته صادقة متفردة.

وعندما يصل الشاعر إلى واقع الشعر الآن، وما يشهده من صراعات وتشرذم، وتمرد من البعض على الواقع الشعرى، والتعالى على المتلقى، وطرق لمضامين بعيدة عن الواقع الإنسانى، والانغلاق فى دهاليز الذات، متخذين من الجسد والعرى والإبهام والغموض عناصر عصرية حداثية للتجربة الشعرية، فإنه ينبه إلى قضية الذوق العام، وإلى أن ما كتبه القدماء ـ بالمقارنة إلى ما يقدمه متحذلقو الشعر الآن ـ كان وضعا للجنس فى مكانه؛ باعتباره جزءا من الثقافة العربية يتناوله الشعراء فى مكانه، وليس خارج حدوده الفنية. وليس معنى هذا، أنه يدافع عن موقف السلطة فى الوقوف ضد حرية التعبير، لكنه يريد من الشعراء أن يحلموا دوما بمجتمع أفضل، والتمرد على واقع شائن، ملىء بالقبح والتخلف. والحرية الحقيقية ـ لديه ـ تعنى القدرة على الخلق، خلق الـجدة، والعمل على تحقيقها، وخلق وجود خصب من شأنه أن يكون نسيج وحده، حتى يحقق المبدع فى الكون ما لا سبيل إلى تحقيقه بدونه.

لقد نجح "أحمد سويلم" فى فتح الباب، ولوجا إلى قضية من قضايا العصر الساخنة، وسوف يدخل بعده كثيرون، يحملون مزيدا من الرؤى، ويثرون ـ بالموافقة أو المخالفة ـ قضية العلاقة الملتبسة بين الشعراء والسلطة، فى عصرنا، وفى كل العصور.

* * *

"أبو سنة".. وانكسار الحلم

فى ديوانه الجديد: (موسيقى الأحلام) ـ الصادر عن الدار المصرية اللبنانية ـ يقدم الشاعر الكبير "محمد إبراهيم أبو سنة" بكائية هائلة تواكب انكسار الأحلام التى عاش من أجلها، على امتداد سنوات العمر الجميل، فإذا بها فى خاتمة المطاف زمن طوته يد الليالى والتغرب، وعدم قادم، وموت الموسيقى فى الروح، وأسراب نجوم ترحل فى سحب من أكفان.

وهى ليست بكائيته وحده، بقدر ما هى بكائية جيل كامل، عاش طويلا على أمل أن تمسك أصابعه بخيوط النجوم فى السماء، وترتفع قاماته إلى أعلى من المستحيل، وتلتمع أمام عينيه بروق الغد الواعدة، وأقانيمها الثلاثة الممثلة فى: الحب والشعر والحرية. لكن، ها هو ذا النهار يعود ساكبا نوره فى ليالى الحصار، والبلاد التى تتقاعد فى آخر الليل منذ نفاها التتار، معلنا عن أسر (الحرية) منذ نفاها ومنذ سباها الكبار، وعن تبدد (الحب) بعد خسارة الرهان، وكأنه كان حلم ليلة قاحلة، أو لمحة من فرح فى غابة الأحزان، وعن (الشعر) الذى أصبح بهتانا يمشى فى الأسواق، يتوج كل النخاسين بتاج الإحسان، ويمنح كل المحتالين صكوك الغفران!

لقد عاش هذا الجيل، بكل قطرة من دمه، وكل ساعة من أيام عمره، وكل نفثة من نفثات روحه وإبداع قلمه، حميا هذه الأقانيم الثلاثة: الحب والشعر والحرية، فى ثنايا حلم ذاتى وقومى متشابك، فى مده وجزره، انتصاراته وانكساراته، يسعد

ويشقى، ويفرح ويتألم، دون أن يتحول الحزن إلى يأس، أو المعاناة إلى إحباط.

وسجلت دواوين "أبو سنة" اهتزاز وجدانه مع موجات هذا الحلم بدءا بديوانه الأول: (قلبى وغازلة الثوب الأزرق) (١٩٦٥) حتى ديوانه الثانى عشر: (أغانى الماء) (٢٠٠٢)، وكأنها مرصد شديد الحساسية لعذابات هذا الجيل ومطامحه وأشواقه. الجيل الذى يمثل الموجة الثانية فى حركة الشعر الجديد، صاحب الدور المميز فى تأصيل القصيدة الجديدة، وإحكام بنائها ولغتها، وتوسيع آفاقها وفضاءاتها، والوصول بمنجز هذه الحركة إلى تخومها البعيدة.

لست فى حاجة إلى تقليد بعض نقادنا ـ من مدعى الانتساب إلى الحداثة ـ وهم يحاولون إدهاشنا بإحصاءات ساذجة عن أسماء وأفعال وصفات حملتها قصيدة أو مجموعة من القصائد، وصولا إلى اقتناص أحكام نقدية تستند إلى هذه الإحصائيات.

ذلك أن ديوان (موسيقى الأحلام) لا يضطرنا إلى هذا الضرب من لعب الحواة. فتوهجه بحال شعرية عارمة، ولغة شديدة الشفافية، وإيقاعات واضحة شجية، ونسيج متكامل الأدوات فى إحكام: يجعل من تأمله متعة شعرية وروحية عميقة، لا يعوقها إغراب أو إلغاز أو ادعاء بشعرية مزيفة. هذا التوهج وهذه الشفافية وهذا الإحكام، يكشف للمتأمل فى قصائد الديوان عن: دوران مادة (الأحلام) فى صورها اللغوية المختلفة فى جميع القصائد، باستثناء القصيدتين المقحمتين على جو الديوان، وطقسه الروحى والنفسى، وهما قصيدتا: (بغداد) و(أخى فى العروبة).

فى الصفحتين ٣٦، ٣٧: تلقانى فى جسد (الأحلام).

نقب عنى فى جسد (الأحلام).

وتصدح بالموسيقى (الأحلام).

فى صفحة ٤٤: تقيمين لا ترحلين (كحلم) أطالعه فى المرايا.

فى صفحة ٥٨: هل كان (حلم) ليلة قاحلة؟

فى صفحة ٦٧: وسط حصباء الفيافى تشهدين على فنائى

تجلسين (وتحلمين).

فى صفحة ٧٢: وهذه (الأحلام) فى قيودها.

فى صفحة ٧٦: تنام على وعد (حلم).

فى صفحة ٨١: ليرقد (حلم) تلألأ فى شرفات المحال.

فى صفحة ١٠٢: وفى الفجر تنهض حاملة (حلمها).

فى صفحة ١١٢: (حلم) على موج الخريف.

فى صفحة ١١٨: تلك زهور (الأحلام).

هذا المعجم الشعرى المرتبط (بالحلم) فى كل تجلياته وصوره اللغوية، له دلالته الكاشفة عن المجموعة الشعرية جوا وروحا وهاجسا وجوديا. ولم يجئ هذا المعجم نتيجة للمصادفة، ولكنه وجود حتمى مرتبط بتراجيديا الديوان المتمثلة فى انكسار موسيقى الأحلام، فيما يشبه المرثية أو البكائية النازفة. "أبو سنة" هنا ـ من ذروة العمر والمكابدات ـ يستشرف حصاد الحياة والشعر والحب والوجود كله ـ هل هو حصاد الهشيم؟ ـ ويسكب دمه فى شرايين هذه القصائد المتوهجة بالشجن والحزن والتململ والرغبة فى البكاء والبوح الأسيان:

شفق تبدد فى فضاء الأغنية

وأنا أقيم على شواطئ

ليلة لا تنتهى

أسقى الحقول، وأشتهى قمرا يفر

ولا أرى غير الرحيل

وغير دمع الساقية
سفن على بحر الظلام
وقرية تدنو من اللهب المضىء
على حدود الهاوية
بلد يعود من العواصف للرياح
ترنحت فيه الخطى
فنجومه تهوى
وآمال تبعثرها الخطايا الشاكية
سحب تطل من النوافذ
ثم تهرب فى اتجاه الليل
يعصرها الغزاة،
على العيون الباكية!

"أبو سنة"، المغنى الكبير، الذى طالما صنفوه على أنه: واحد من شعراء الرومانسية، يرد إلى مصطلح الرومانسية شرفه وجلاله وحقيقة دلالته فى هذا الديوان، بعد أن أصبحت الرومانسية فى سياق الرطان النقدى ـ المصرى والعربى ـ تهمة مرادفة للهروب والانسحاب والسلبية والانطواء. وهى التى انطلقت أساسا من روح ثورية عارمة، وحس وطنى وقومى، وتمرد على التقاليد والمواضعات الكلاسيكية. إنه هنا: شاعر رومانسى بالمعنى الثورى الرافض والغاضب، شاعر يثقل وجدانه عبء الهم الوطنى والقومى، ومسئولية الإنسان عن عصره وزمانه، فى مواجهة كل صنوف القهر والتردى والخذلان.. لقد اختلطت المعايير واضطربت القيم، وساد الوجه القبيح للشعارير والمتشاعرين وسدنتهم من النقاد المشبوهين، فاقدى الشرف والضمير. فكان لزاما عليه أن يطلق صيحته المدوية، بلا زخرف أو بلاغة أو التباس، فى حسم ويقين:

نقب عنى فى جسد الأحلام
لكن لا تنس الموسيقى
الموسيقى روح الشعر
وروح الصدق المقدام!

وكأنه يقـول شهادتـه لهذا الزمـان فى وضوح ساطع: لا شعر خارج الموسيقى، لا شعر إلا إذا صدحت أحلام الشعراء بالموسيقى: روح الشعر!

وهو يتأمل فيما حوله وفيمن حوله، فيرى إنسانا مغتـرا بما تحويه خزائنه، وإنسانا مستوحشا، وإنسانا خائفا، لن ينقذهم جميعا إلا ما يحمله القلب من محبة ووفاء، فيطلق من جديد صرخته المدوية فى حسم ويقين:

كل وجود
لا يسكنه الحب ـ هباء
كل وجود
لا يسكنه الحب ـ شقاء

لقد فاض الكيل، ولم يعد أمام الشاعر غير التصريح بدلا من الكتمان، وغير البوح بدلا من التستر والإخفاء.. والبكائية التى تنتظم الديوان ـ روحا وطقسا ـ تتسع لألوان من السخرية، وجلجلة الإيقاع الشعرى، وانتظام توقع القافية ـ أو القوافى ـ فى العديد من القصائد، وانسيابية الأداء الشعرى وتدفقه وتوتره وارتفاع مستوى حرارتـه، وقصر الفواصل والأشطر الشعرية؛ بحيث لا تعـوق هـذا التدفق والانسياب، وقدرة فذة على إبداع اللوحة الشعريـة: تصويرا وتجسيدا ومزجا لعناصر الألوان ونسب الأضواء والظلال.. الأمر الذى يجعل اللوحة الشعرية لديه ناطقة بالمعنى والدلالـة، فى تفاعل عناصرها، وجدلية قسماتها وألوانها:

ماء أخضر
يتدفق فى أشجار بيضاء
شهب وسماء زرقاء

ترقص عارية
فوق القمم الشماء
سحب هاربة، تطويها الريح
وتطعمها للبحر المهتاج
فيمضغها فى استرخاء
أفلاك تتصادم، أفلاك تتناغم
فوق البشر المذهولين الغرباء
تلك زهور الأحلام
يباغتها الشوق
فتطلق أجنحة يسكنها البرق
تهدئها الأنداء!

مثل هذه اللوحة الشعرية البديعة ـ درس فى الإبداع الشعرى ـ لغة وتصويرا ـ لمتشاعرى هذا الزمان، وكشف عن حقيقة القامة الشعرية لهذا الشاعر الكبير، الذى لا يزال نهر شاعريته مفعما بالخصوبة والقدرة على العطاء، والتجاوز والإنجاز المستمر، شاعرا رومانسيا حتى النخاع، وجوديا ملء فضاء الشعر والكون، ملتحما بجسد الواقع، وطينية أرضه وإنسانه:

سأمضى إلى آخر الحلم
أتبع ما قد يفوح من العطر
ما قد يلوح من النهر
ما قد يبين من السر
حتى نهاية هذا الفرار!

* * *

obeikandl.com

الحنين إلى الممالك الضائعة

"ممالك ضائعة" هى أحدث المجموعات الشعرية للشاعر العراقى "على جعفر العلاق"، بعد مجموعاته السابقة: لا شىء يحدث... لا أحد يجىء، ووطن لطيور الماء، وشجر العائلة، وفاكهة الماضى، وأيام آدم، والمجلد الأول من الأعمال الشعرية. بالإضافة إلى عدد من الأعمال النقدية هى: مملكة الغجر، ودماء القصيدة الحديثة، وفى حداثة النص الشعرى، والشعر والتلقى، والدلالة المرئية، أنجزها الشاعر الذى يعمل أستاذا للدراسات الأدبية فى (جامعة العين) بدولة الإمارات.

"والعلاق" واحد من الأصوات الشعرية المتألقة فى جيل الستينيات العراقى، الذى ينتمى إليه "حسب الشيخ جعفر" و"على مهدى" و"حميد سعيد"... وآخرون، والذى يمثل ـ على امتداد الوطن العربى ـ إضافة حقيقية، وتأصيلا لقصيدة الشعر الجديد التى بدأها جيل الرواد: لغة وإيقاعا وتشكيلا، وإحكاما للبنية الشعرية من خلال وعى أعمق ومغامرة أرحب، وانفتاح على كون شعرى أغنى بالرؤى والدلالات والرموز، وأكثر احتفالا بالصورة الشعرية الطازجة والمدهشة.

وهو فى مجموعته الجديدة، يفجر ينابيع من الحنين إلى ممالكه، ممالكنا الضائعة، وينصب شركا من الكلمات المتوهجة تغرى آلاف التفاصيل الصغيرة، ومختلف الأحوال والمواقف، وتداعيات الذاكرة، فإذا بها تطير كالنوارس، وترفرف

كطيور الماء، باحثة عن جزيرة تهبط عليها وتستريح، أو وطن ناء يبعد فى مسافات الخيال، منكفئا على مهرين منكسرين، على فراتين من فضة وعويل، ولا يزال هتاف الطيور الشريدة مشتعلا، ولا شجر فى الأفق البعيد يتوسد أرواح المجهدين المشردين:

تغرب الشمس
موحشة فى القصائد، لا شجر
يتوسد أرواحنا
لا نعاس يجىء طريا من البحر
من سوف يحرس ماء القصيدة
أغنية، أم حصاة؟
دفعنا إلى الريح أطفالنا، وتمائمنا
كم تبعنا نجوما من الطين دامية
كم رأينا المدى ينحنى مثقلا بانكساراته
أفراتان من فضة وعويل
أم هتاف الطيور الشريدة يمتد
مشتعلا، بين جيل وجيل؟

هذا شعر مقطر مصفى، نقى كقطرات الندى، خلا من كل شائبة أو فضول، لا يستبقى إلا الحبة المشعة والتعبير الدال، واللغة التى لا تعرف الترهل، من هنا يصبح نافذا كالرمح، مشرعا كسيف باتر، أو لـمعة برق تخطف البصر، يقول عنه "زهير أبو شايب": "كثيرا ما تبدأ القصيدة بتساؤل ملىء بالأسى، إن الوطن الضائع هو ذلك الوطن المقيم فى السؤال، وهو وطن لكل الممالك السرية الضائعة، هكذا يستدعى الوطن سلسلة طويلة من رموز الفقد: جلجامش، أنكيدو، بابل، ليلى العامرية، فاطمة. كما يستدعى مشاهد الطفولة، والطلليات، والمراثى، ويحشدها

جميعا، فيما يشبه مشهد الندب الكربلائى، ضمن نشيج كونى على ما ضاع. هنا يكتب الشاعر العربى المعاصر من داخل (لحظة طللية) لا تكتفى بالندب، بل تهجس وتستشرف وتمتلئ بالتوق، وتحفر نفقها السرى لتسريب الضوء، تضيع الممالك، يبقى الشعر ليدل على ما لا يضيع".

يقول "العلاق" فى قصيدته: (نار الآلهة) المهداة إلى "جمال حمدان":

نركض خلف نارك الخضراء
نصغى إلى رمادك الأخضر:
يستحيل قبة من الشذا،
أو شفقا من صلوات الماء
كيف انتشرت فى مرايا العشب
أى غيمة ريانة أنت؟
انطفأت ساطعا:
رائحة الرماد عبقرية تحترق
سئمت من تاريخنا البطىء،
أم سئمتنا!
يا جرسا، أسرع من رياحنا ينطلق
كيف انتشرت فى مرايا الريح!
كل عشبة ـ تصغى إلى نيرانك الغضة
كل عشبة، تهرب من رمادنا الخامل:
لا مجد، ولا خطيئة
تركتنا، لنارنا البطيئة!

فى الفضاء البعيد الصاخب والمباشر، عن ردود الفعل، وعن الوقائع

والأحداث، يحلق شعر "العلاق"، حيث الشعر الشعر، وحيث الكيمياء الخفية لهذه النار الأزلية، التى تلفح شررا وشعرا:

أنت أو غلت فى الرماد
أم توغلت فى الشرر!
قلت للموت: لا تذر
عشبة، واقمع المطر
والعصافير، والعباد
هل أساء لك الشجر!
هل أساءت لك البلاد!

وعن أنين الحضارات يقول "العلاق":

من أنين الحضارات أقبلت منكسرا
حشة العشب تجرحنى
والفرات رماد يئن على شفتى
غزال يضىء حنين النساء
وطن يتنزه مكتئبا فى القصائد
حيث النسيم قبور جماعية
والكواكب نائحة فى العراء
ذا أنين الحضارات، بل قصب
يتكسر فى الروح شرسا
يعض الندى، والصدى، والشجر
والأغانى: بقية عكازة فى المطر

"للعلاق" ولع بالموسيقى الشعرية، يروضها، ويضفرها، ويصنع من تداخلاتها ـ

obeikandl.com

فى بعض الأحيان ـ نغمـا جديدا مركبا غير مألوف أو متوقع. هو الحريص على الجدة والتجاوز وعدم التكرار، كل مجموعة شعرية وثبة فى الفضاء الشعرى، وانسلاخ عن المتحقق الذى سبق إنجازه. وهو غارق فى تراجيديا المشهد العراقى، والعربى حتى النخاع، لكن على طريقته، وبلغته. من هنا فإن مجموعته الجديدة كما يقول "زهير أبو شايب": "تعيد إلينا الثقة بالقصيدة التى توشك هى أيضا، أن تكون إحدى الممالك الضائعة".

* * *

obeikandl.com

ابتهالات الصيف البارد

فى القاهرة، وفى عام ١٩٩٨ نشر الشاعر السورى: "على عبد الكريم" مجموعته الشعرية الأولى، التى صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وحملت عنوان: (ابتهالات الصيف البارد). كان "على عبد الكريم" عند نشر مجموعته فى الخامسة والأربعين من العمر ـ فهو من مواليد سورية محافظة اللاذقية عام ١٩٥٣ ـ ومعنى هذا أنه انتظر طويلا وفكر كثيرا، قبل أن يقرر مواجهة القارئ، وغربلة ما تجمع بين يديه من كتابات شعرية. لم يشأ أن يتعجل كما يفعل كثير من أبناء هذا الزمان ـ ولا أن يطرح بضاعته على الناس قبل النظر والتأمل والتمحيص. وكلما طال به الأمد، انقطع حبل الرضا بينه وبين كثير مما كتب وأنجز، لكنه قانع بالقليل الذى استبقاه. ففى هذا القليل من شعره سمته وهويته وحقيقته الشعرية التى أسس لها مهاد تربوى ـ شديد الثراء والخصوبة ـ وهو يتتلمذ فى سنواته الباكرة على أبيه: يقرأ بين يديه دواوين أعلام الشعر العربى، ويحفظ الكثير من متخيرها، بالإضافة إلى قراءة القرآن الكريم قراءة متذوقة ـ لغوية وبلاغية ـ ونهج البلاغة للإمام على، وكثير من كتب السيرة، وتراجم الأدباء.

ثم أتيح له الاقتراب الحميم من عالـم شاعر سوريا الكبير "بدوى الجبل" "محمد سليمان الأحمد" والأفق الروحى واللغوى لأبيه العالم الكبير "سليمان الأحمد"، الأمر الذى خلف فى وجدانه وذاكرته الشعرية عشقا خاصا لشعر البدوى، بالإضافة إلى اتساع ذاكرته ـ النادرة المثال ـ لشعراء القمة فى ديوان الشعر العربى: قدامى ومحدثين.

حصل "على عبد الكريم" على شهادته الجامعية فى اللغة العربية والأدب العربى من جامعة دمشق، وبدأ حياته العملية صحفيا ومحررا ثقافيا ورئيسا للقسم الثقافى فى صحيفة (تشرين)، ثم انتقل إلى الهيئة العامة للإذاعة والتليفزيون، متقلبا فى العديد من المناصب وصولا إلى منصبى: مدير التليفزيون ومدير الإذاعة، حتى اختير فى ١٩٩٦ مديرا لمكتب وكالة الأنباء السورية فى القاهرة، فمديرا عاما لوكالة الأنباء السورية فى دمشق. لكن العمل الدبلوماسى يظفر به فى ختام الأمد، ويخلصه من جحيم العمل الإعلامى، وتقلباته وصراعاته وتوتراته، فيتم نقله إلى وزارة الخارجية: مستشارا فى السفارة السورية بدولة الإمارات، فقائما بالأعمال فى السفارة السورية بدولة الكويت[1]. ليصبح بهذا: ثالث شاعر سورى يتاح له من فضاء العمل الدبلوماسى وخبراته وآفاقه ما يضيف إلى ذخيرته الشعرية والإبداعية والحياتية بعد الشاعرين الكبيرين: "عمر أبو ريشة" و"نزار قبانى".

عندما نشر "على عبد الكريم" مجموعته (ابتهالات الصيف البارد) أثار عنوانها الدهشة والاستغراب. نحن فى بلادنا لا نعرف إلا صيفا واحدا وهو الصيف الحار، أما الصيف البارد الذى يعرفه "على"، ويبدع فى التعبير عنه فهو صيف محافظته "اللاذقية" فى مرتفعاتها وجبالها وقممها حيث مصايفها الساحرة وهضابها الخلابة فى "صلنفة" و"كسب"... وغيرهما، حين تكتسى قمم الجبال بالثلوج. ولأن عنوان الديوان ليس عنوان إحدى قصائده ـ على عادة الشعراء فى اختيار عناوينهم ـ فقد تكون برودة الصيف هنا إشارة إلى معنى وجودى يتصل بوجدان الشاعر ومشاعره الحارة المتوهجة، فى قلب وطن عربى هامد خامد منطفئ الحرارة، بارد المشاعر والأحاسيس.

فى قصيدته: (جناحان للحزن والثلج) إشارتان إلى المعنيين الكامنين فى هذه (البرودة) وهو يقول فى مستهل القصيدة:

---

(١) هو الآن: سفير سوريا فى الكويت.

أحبها أشجار الزيتون
وقد غطاها "الثلج"
أحبها تلك المغرورة
فى جموح أحلامها

ثم، وهو يقول فى ختام القصيدة:

عيناك مغمضتان
وأنا راعف الشوق
ليت شمسا من الشعر تفتح عينيك
ليتها ليتها
(فالثلوج) الخضراء
تملأ قلبى!

فى مستهل (مجموعته الشعرية) يقدم "على عبد الكريم" استهلالا يقول فيه: "أين يقف هـذا؟، ولماذا تأخرت فى تقديمه؟، وهل هو كل ما كتبت منذ ثلاثين عاما ـ تاريخ أولى قصائدى ـ؟" (أصبح التاريخ الآن خمسة وثلاثين عاما منذ نشر أولى قصائده المهداة إلى المطربة الكبيرة "فيروز" عام ١٩٦٨)، والقصائد فى هذه المجموعة هل تلتزم البحور الخليلية أم التزمت بحرا عروضيا واحدا أو أكثر، أو اعتمدت موسيقاها التى تفرضها الحالة الشعرية خارج البحور المألوفة وضوابطها.؟

أبرز ما يميز "على عبد الكريم": الشاعر والإنسان: أن حسه النقدى المرهف يجاور ويساوق حسه الشعرى الإبداعى، يقوده ويوجهه ويفضى به كثيرا إلى هذه (الغربلة) التى يـحدثنا عنها، وإلى هذه الصورة الـجميلة من صور التواضع الشعرى التى تبعده عن أساليب الادعاء والـمكابرة، التى يمارسها كثير من ناشئة

هذه الأيام؛ حين يتصورون أنهم ـ وهم ما زالوا على عتبة البدايات ـ يطاولون الكبار، ويسقطون فى وهم المقارنة بينهم وبين من سبقوهم إبداعا وتحققا وخبرة.

يتكئ "على عبد الكريم" على قاعدة رصينة من الوعى بالتراث الشعرى فى كل عصوره، لكن هذا الوعى استبقى الكثير من نماذج هذا التراث البديعة فى ذاكرته، لم يسمح لشىء من هذا كله بالتسرب إلى شعره. قصائده تبدأ دائما من ذاته الشعرية، وتنتهى مفضية إلى الأفق الأرحب: الوطن والكون، ولا تعلق بها أبدا مكتسبات الذاكرة.

يقول ـ عندما حاصرت الكوابيس أحلامه وهواجسه هو وكثيرين غيره من شباب هذه الأمة ـ لكنه يؤمن بأن شجرة الحياة هى الأقوى فى قصيدة عنوانها (أجراس) وكأنها أجراس تحذير تدق! (القصيدة تحمل تاريخ ١٩٨٠):

حارتنا معتمة
لم تدخلها حبيبتى منذ شهر
*** * ***
تحاصر رأسى أربع قذائف
لكنها لا تنفجر!
*** * ***
أيها الوطن يا سريرى
أنا لا أستطيع النوم
*** * ***
رأسى كما الوطن:
مستدير ومستطيل وضائع
عيناى كما حبيبتى شاردتان

* * *

خلق "على عبد الكريم" ليكون شاعرا، حتى ولو لم يكتب قصيدة واحدة. هذا التكوين الإنسانى الصافى، وهـذا الأداء العف، وهذه الروح الحارة المشاركة، وهذه الطفولة الـمكتشفة دوما للـدهشة: كلها سمات شاعـر. وشعره فى القليل الذى نشره ـ فما زال لديه الكثير الذى أبدعه خلال سنواته الأربع فى القاهرة، أستحثه دوما ليشكل مجموعته الشعرية القادمة ـ صورة لنفسه ومزاجه: لين ورقة بلا انتهاء، ورهافة نصل حادة وباترة حتى النخاع: لغة وصورا ورموزا وإيحاءات وتدفقات معنى ودلالة. فضلا عن معجم شعرى يغتنى بتشكيلات الجمال الطبيعى والروحى. وتنعكس من خلاله القصيدة الشامية عند "على عبد الكريم" امتدادا متميزا ومغايرا لقصيدة "بدوى الجبل ونديم محمد وسليمان العيسى ونزار قبانى"... وغيرهم من المصورين الكبار. ولقد وضعه عمله الإعلامى الطويل ـ فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون ووكالة الأنباء ـ فى قلب المجتمع السورى والمجتمعات العربية؛ فاغتنى بالعديد من الخبرات والرؤى والطواف فى وجوه الحياة والناس. وبقى له عاصمان يلوذ بهما ويتقى ضراوة الأيام وتنكر بعض البشر: شعره وحبه. هذان معا يقينه الذى لا يهتز ولا يتزعزع، فكلاهما منبجس من روحه وصوته ونقائه، وكلاهما عشق أزلى: ناره لا تخمد وحقيقته لا تغيب:

تقفز فى الصدر الأحلام وتهمى
فوق شعاب النفس المنطفئة
وتمر على الآهات
وتبعثها جمرا
وتلم الأيام
وتبعثها فجرا
وتضم الأمداء

وترسلها شعرا
أنثى دخلت من نافذة الحرف
إلى قلبى
فمحت بيديها
أوجاع العمر الصدئة!

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

"يوسف نوفل".. واستشفاف الشعر

عندما يكون العنوان (استشفاف الشعر) ـ وهو عنوان جديد ولافت ـ فلابد أن نتوقع متعة مغايرة فى حديث النقاد والدارسين عن الشعر. وهو ما يلمسه القارئ بالفعل فى هذا الكتاب الجميل للدكتور "يوسف نوفل" ـ الأستاذ بكلية البنات جامعة عين شمس ـ والشاعر الذى أصدر حتى الآن ثلاث مجموعات شعرية هى: كما تهاجر الطيور، وشلالات الضوء، ومرايا المتوسط. كما سبق هذا الكتاب، فى سجل دراساته الأكاديمية: رسالته للماجستير عن: صورة المجتمع المصرى فى الرواية المصرية، ورسالته للدكتوراه عن: (محمد عبد الحليم عبد الله.. وفنه القصصى) وكتبه عن الفن القصصى بين جيلين: "طه حسين ونجيب محفوظ"، والقصة بعد جيل نجيب محفوظ، وأصوات النص الشعرى، ونقاد النص الشعرى، وبناء المسرحية: رؤية فى الحوار، وإنجازه الضخم الذى هو قيد الطبع الآن: ببليوجرافيا ديوان الشعر العربى الحديث[1] منذ الحملة الفرنسية حتى الآن، وهى على مستوى العالم العربى كله.

لابد أنه توقف (كما يقول فى مقدمة الكتاب) ـ أمام ما هو مقبل عليه، متسائلا عن العنوان الملائم، هل يقول مباشرة ـ كما قال غيره ـ قراءة الشعر؟ أم يقول ما يؤدى المعنى ذاته: الشاعر والكلمات، أو السفر بالكلمات، أو الكلمات المسافرة، أم أن الذى يقدمه ما هو إلا استجابة الكلمات، أو هو الفعل ورد الفعل واستشفاف

(١) صدرت فى عام ٢٠٠٥.

الشعر؟

فى تحليل دقيق، وأمين للساحة النقدية الآن، وما يدور فيها، وما يقال عنها، يبدع الدكتور "يوسف نوفل" نصا نقديا جميلا يقول فيه: "كثيرون أولئك الذين تنبهوا فى وقت باكر إلى ما قطعته مهمة قراءة النص، من أشواط مترامية الأطراف، فقال بعضهم: قد توجد مناهج للنقد بقدر رغبتنا فى ذلك، غير أن أى منهج من هذه المناهج ليس هو المنهج الوحيد للنقد)".

الساحة النقدية أكثر انقساما من أى وقت مضى، حتى وصفوا ما سمى: بالمواقف الجديدة خلال السنوات الأخيرة، بأنها تحيزية أو هامشية أو تخمينية، وحتى أطلق البعض عليها: التشوش والفوضى النقدية. ثم مضوا يتحدثون عن وضع بعض قراء النص أنفسهم فى مركز الاهتمام، واهتموا بالأثر الذى يحدثونه هم أنفسهم لا ما يحدثه النص، بإحلال أيديولوجياتهم ونظمهم المفاهيمية، واستعراض معارفهم الواسعة، بل استعراض معمار النص ذاته، هياما بالـمفاهيم الطنانة. وإغناء جدل أجوف بالأسماء والمصطلحات الهجينة الرائجة والمستوردة، والأقوال المأثورة، و(تقليص النقد) إلى عملية التسلية للمتضلعين فى العلم، إلى ناد لهواة الحديث! مع ظهور احتجاجات عليه، وعلى استعراض العضلات، وتضخيم الشخصية والحذلقة، حتى صار الأكثر مركزية فى عملية النقد، النقاد أنفسهم لا الأدب.

لقد سمى بعض النقاد هذا الأمر بالإبهار تارة، والنرجسية تارة، وفقدوا تحويل النقد إلى لعبة خاضعة للتغير المتواصل، الذى يفقد الثقة، حتى قالوا: "إن النقد يشوه الأدب" ووصفوا بعض النقاد (بالمتحذلقين)، ورأوا ما صنعته فروع إنسانية بالنقد إغارة على الأدب.

لقد هالهم: أن كل إقليم من أقاليم النقد يريد اليوم أن يحصر نفسه فى عنصر واحد فقط؛ وفقا لنظرية الاتصال، وهالهم ذلك التعدد، إذ لا توجد (قراءة بريئة) كما أنه لا توجد (عيون بريئة). هكذا وصل الأمر فى رأى "يوسف نوفل" ـ أن رأى

البعض فى مبالغات المفسرين لعبة أفعوانية شيطانية، مذكرين بما قاله "رينيه ويليك": "إن النقد هو بالضرورة مفهوم متنازع عليه". هناك، كما يبدو، حرب شعواء بين الاتجاهات الرئيسية: التقويمية الحكمية، والشخصية، والعلمية، والتاريخية، وهو تأزم لم يكن قد هدأ فى أواخر سبعينيات القرن الماضى.

وثارت تساؤلات: هل تستخدم الشخصية لفهم النص؟ أم النص لفهم الشخصية؟ وبرزت مقولة (سيكولوجية) الخلق الفنى.

وهذا التعدد، انعكس بدوره على القراءة النقديـة؛ ذلك أن قراءة النص تأرجحت بين مناظير متعددة من التفسير وأحكام القيمة، والنمذجة، والمتعة والجماليات، والسيميائية، والنفسية، والسوسيولوجية، والتأويلية، والظاهراتية، والأنثروبولوجيا، وكتاب السيرة، والماركسيين، والفرويديين، والأسطوريين، والشكليين، ونقاد النص، وطلاب التلقى الجمالى، والتعدد" البنيوى. ومن وصف النقد بأنه نشاط اجتماعى، أو معرفى، أو مرآة عاكسة!

الدكتور "يوسف نوفل" يتكئ فى كل هـذه المقولات القائمة على إحساس عميق بمشكلة تعدد اتـجاهات النقد ومدارسه، إلى كتاب شديد الأهـمية والجدة، عنوانه: (ما هو النقد) يقوم على طرح هذا السؤال: ما هو النقد؟ على أربعة وعشرين ناقدا أمريكيا، بدت إجاباتهم مدهشة للتعددية النقدية حتى مال بعضهم للتهكم أو الـهجوم على بعض الـمبالغات، وكان ذلك منذ نحو خـمسة عشر عاما، وأشرف على الكتاب "بول هيرنادى" وترجمته "سلافة حجاوى" (بغداد/ دار المأمون عام ١٩٨٩).

لكن كل ما اكتنزه "يوسف نوفل" من وعى وخبرة، وما حصله من معرفة، وامتلكه من حس شعرى وفنى، يتألق أكثر ما يتألق فى فصول الكتاب التى يطبق فيها مفهومه عن الاستشفاف. وهو يتعامل مع أعمال شعرية كاملة حينا، ونصوص شعرية و"دواوين" حينا آخر؛ ولأن ثقافته تبدأ من البعد التراثى العريق، فهو يذكر

ما جاء فى لسان العرب: شف الثوب إذا رق حتى يصف جلد لابسه، والشف والشف: الثوب الرقيق، وقيل، الستر الرقيق يرى ما وراءه، واستشف الستر، ظهر ما وراءه واستشف هو: رأى ما وراءه. وتقول للبزاز: استشف هذا الثوب أى: اجعله طاقا وارفعه فى ظل؛ حتى أنظر أكثيف هو أم شفيف؟ ونقول، كتبت كتابا فاستشفه: أى تأمل ما فيه. واستشف الماء: نقص شربه، واستشفت ما فى الإناء: شربت جميع ما فيه.

فاستشفاف النص إذن ـ فى رأى "يوسف نوفل" ـ ليس موقفا توفيقيا أو تلفيقيا، لكنه يعنى عدم الاقتصار على جانب واحد، بل سلوك الدروب الموصلة كلها، كما أنه لا يقيم بناء منهج على أنقاض منهج آخر، بل يستخدم كل أداة قد تسهم فى استشفاف النص لقراءة ما وراءه، وتأمل كل ما فيه.

يقول: "وفائدة هذا المنهج أنه يفتح أمام النص كل فرصة من فرص القراءة الفاعلة فى سبيل الكشف عن أقصى قدر ممكن من (الغطاء) وإظهار أقصى قدر ممكن من (الخفاء) مع الأخذ فى الاعتبار أن من النصوص الشعرية ما يصلح لهذا المنهج، ومنها ما لا يصلح. وما فى النصوص قد يظهر بأداة، وقد لا تظهر أداة أخرى من أدوات القراءات (لا القراءة الواحدة) من التقصى، والتعليق، والتأويل، والتفسير، وتاريخ الأفكار، والبحث عن المعنى، والتحليل وتتبع الأصوات: التراثية ـ الشعبية ـ الفولكلورية ـ التاريخية، بل إن هناك من ينادى بالدراسة النصية الشفهية". وحيث إن القراءة: قراءات، فالاستشفاف واجب!!

يتناول كتاب (استشفاف الشعر) فضاء النص الشعرى، وجدلية الزمان والمكان، والإظهار والتخفى، والكشف والإغلاق، كيف أن التناصية تناصيات، والأبنية الموسيقية، و"صلاح عبد الصبور" (سيرة فنية) وصوت الشعر الشعبى، وشعراء سيناء والقناة، وشعرية السخرية.

فى تناوله لشعر "صلاح عبد الصبور" ـ مثلا ـ يقول: إن شعره متجه نحو

استبطان النفس الإنسانية بأحزانها وفشلها وقهرها، وكأنه ذلك الأعرابى الذى قيل له: ما بال المراثى أجود أشعاركم؟ فقال: لأننا نقول وأكبادنا تحترق. وفى شعره نجد تصوير القيم والمبادئ المستوحاة من السلوك الشعبى وموروثه:

قلتم لى:

لا تدسس أنفك فيما يعنى جارك

أو يصور الناس فى بلاده وبلادنا، أى الفلاح المصرى البسيط المكافح:

غناؤهم كرجفة الشتاء فى ذؤابة الشجر

وضحكهم يئز كاللهيب فى الحطب

خطاهم تريد أن تسوخ فى التراب

أو يصور الشتاء على نحو يفلسف فيه منهج الإنسان فى نظرته المستقبلية:

ينبئنى شتاء هذا العام: أننا لكى نعيش فى الشتاء

لابد أن نخزن من حرارة الصيف وذكرياته

دفئا..

لكننى بعثرت كالسفيه فى مطلع الخريف

كل غلالى، كل حنطتى وحبى

كما يصور السلام، وكيف أن المصريين يحبون السلام، ومستعينا بموروثات دينية شعبية، مازجا بين تلقائية الشعب، وعالمية المدلول لكلمة السلام:

أهل بلادى يصنعون الحب

كلامهم أنغام

ولغوهم أنغام

وحين يسغبون، يشبعون من صفاء القلب

وحين يظمأون، يشربون نهلة من حب

ويلغطون حين يلتقون بالسلام

عليكمو السلام

عليكمو السلام!

يتبنى "يوسف نوفل" فى كتابه عن (استشفاف الشعر) مقولة "جان إيف تاديه": لقد صار النقد مساويا للأعمال التى يحللها ـ وهى مقولة أوردها فى كتابه: (النقد الأدبى فى القرن العشرين) ـ صدرت ترجمته عن مركز الإنماء الحضارى فى حلب عام ١٩٩٣ ـ وأصبح النقاد (كتابا بارعين) أيضا: إنهم يمارسون الكتابة فى سطور الآخر، ويخرجون منها إلى نصوصهم الخاصة، مما أدى إلى انتفاء النقاد، وأصبح جوهر العملية النقدية: الكتابة فى مواجهة الكتابة. فليس هناك هوية خاصة تدعى (المؤلف) كما أنه ليس هناك هوية خاصة تدعى (الناقد). يضاف إلى ذلك كله، الممارسة الإيجابية النقدية للمبدعين، مصداقا لمقولة "بودلير": "الشعراء الكبار يتحولون تلقائيا وحتميا إلى (نقاد)؛ ذلك أن (الشعر) حالة خاصة من القراءة الأدبية". ولقد أثبت "يوسف نوفل" بكتابه البديع، أن (النص) فضاء شفاف يشف عن مكنونات عديدة، نحجبها إذا اقتصرنا على عدسة واحدة، ونقترب منها أكثر إذا استخدمنا منهج الاستشفاف المؤدى إلى الاستكشاف!

* * *

صرخة فى وجه الرداءة والهبوط

الصرخة يطلقها الكاتب الشاعر "بشير عياد" من خلال كتابه (ناطحات شعرية) الذى صدر له ضمن سلسلة: (دراسات نقدية فى مكتبة الأسرة)، وهو يأخذ بيد القارئ العام ـ قارئ الصحف لا قارئ الأدب ـ بقوة وبقسوة إلى مرحلة ما قبل المعلقات فى الشعر العربى القديم، تلك التى شهدت ـ كما يقول فى تقديمه لكتابه ـ "آلام المخاض الأول الذى سبق ميلاد أول بيت من الشعر العربى، إيذانا باندلاع هذا الفن الجميل فى صحراء جزيرة العرب، ليتحول فى زمن قياسى إلى فن العربية الأول، ويجعل من لغتنا: لغة شاعرة فى المقام الأول".

الأمر إذن بالنسبة إليه، واحد من أهم أحلامه وهو: (تقريب تراثنا الجميل، وجعله فى متناول القارئ العام بانتقاء النماذج الإنسانية والوجدانية التى تمثل قاسما مشتركا بين الجميع، وطرحها فى لغة سهلة بسيطة، بعيدة عن لغة الدراسات الأكاديمية التى تحتاج إلى متخصصين، يستطيعون الصبر عليها والتعامل مع صعبها وغريبها).

ثم يقول "بشير عياد" عن كتابه باعتباره الأول فى سلسلة من الكتب ـ "يجىء هذا الكتاب كوقفات قصيرة مع بعض الشعراء الجاهليين والمخضرمين، وشعراء صدر الإسلام، أولئك الذين لم يكتبوا (المعلقات) ولكنهم تركوا قصائد أخرى تشبه (ناطحات السحاب) لدرجة أن بعض هؤلاء الشعراء لم تحفظ لهم ذاكرة التاريخ أكثر من قصيدة واحدة، ولكنها كانت كفيلة بأن تكتب لاسم صاحبها الخلود

والبقاء".

ما الذى يعنيه هذا الكلام!.

يعنى ـ بكل وضوح ـ أن شاعرا معاصرا وجد أن مسئوليته تجاه نفسه، وتجاه الآخرين، أن يثقف نفسه أولا من خلال العودة إلى أصول الشجرة الشعرية العربية، راصدا جمالياتها، متتبعا تجلياتها، متوقفا أمام ما تمثله كل ناطحة سحاب ـ على حد تعبيره ـ من هذه القصائد الباذخة، من أفق شعرى، واكتمال فنى، ورؤية للحياة والوجود والكون.

و"بشير عياد" يختلف عن كثير من رفاقه، الذين يرون أن تراثهم الشعرى هو: إبداع العقدين الأخيرين، أو العقود الثلاثة الأخيرة من الزمان، وأن ما قبل هذه السنوات لا يستحق العودة إليه أو الانشغال به. أى: أنهم يختصرون تاريخ الشعر العربى فى مجرد العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة، ويسقطون ما قبلها من إبداعات وتحولات وإنجازات، تملأ ديوان الشعر العربى على مدى سبعة عشر قرنا من الزمان.

وهو شاعر مختلف ثانيا؛ لأنه يجد نفسه مشدودا إلى ذلك العصر الشعرى الذى يفترش قرنين من الزمان: أولهما يرتد إلى مائة عام قبل ظهور الإسلام، وثانيهما يمتد إلى نهايات القرن الإسلامى الأول.

من هنا، كانت قدرته الفذة على الارتحال والتنقل والاقتراب والتذوق والتأمل والتحليل لقصائد عدد من المبدعين الكبار فى مسيرة الشعر العربى لم يسمع بهم كثير من رفاق شاعرنا. هم: "حميد بن ثور الهلالى وسويد بن أبى كاهل اليشكرى والسموأل بن عادياء وعبيد بن الأبرص ومالك بن الريب وذو الإصبع العدوانى وأبو ذؤيب الهذلى" بالإضافة إلى الشاعر "صفى الدين الحلى" الذى قام بتخميس قصيدة السموأل، والشاعر "محمد بن سليمان التلمسانى" المعروف باسم: (الشاب الظريف).

وكان توقفه البديع عند القصيدة الكافية "لصفى الدين الحلى" ـ وهى كما يشرح لقارئه إحدى أرتقياته أى القصائد التى أنشأها وهو لدى "بنى أرتق" من الملوك والأمراء فى "ماردين وديار بكر" ـ واصفا إياها بأنها: قصيدة رقيقة عذبة الديباجة والمعانى، غزلية الألفاظ. وأرق ما فيها: الاستهلال الغزلى البديع الشفيف:

كفى القتال وفكى قيد أسراك
يكفيك ما فعلت بالناس عيناك
كلت لحاظك مما قد فتكت بنا
فمن ترى فى دم العشاق أفتاك؟
كفاك ما أنت بالعشاق فاعلة
لو أنصف الدهر فى العشاق عزاك
كملت أوصاف حسن غير ناقصة
لو أن حسنك مقرون بحسناك
كيف انثنيت إلى الأعداء كاشفة
غوامض السر لما استنطقوا فاك
كتمت سرك حتى قال فيك فمى
شعرا، ولم يدر أن القلب يهواك
كدت المحب فماذا أنت طالبة
فنا محبك مع إشمات أعداك!

الكاتب الشاعر "بشير عياد" يحرص على أن يضمن كتابه النصوص الكاملة

للقصائد التى تناولها بالعرض والتقديم، والتى استقاها من المصادر الموضحة مع كل قصيدة. ثم يقرر حقيقة لا يحرص كثير من الكتاب والباحثين فى زماننا على ذكرها أو الاعتراف بها، لكنها تمثل خلقا علميا وأدبيا رفيعا، حين يقول: "ولأن الفضل يـجب أن يذكر لأهله، نقرر أننا نقلنا القصائد بـهوامشها من مصادرها المشار إليها، والفضل فى جمعها وتخريجها وبيان معانى بعض مفرداتها، يرجع إلى الأساتذة المؤلفين والنقاد ومؤرخى الأدب ـ أصحاب هذه المصادر والمراجع ـ بجهودهم الخلاقة، وصبرهم ومثابرتهم فى سبيل جمع هذا التراث الرائع وإعادته إلى الوجود".

ثم يقول فى تواضع جم: "نضع هذه القصائد كاملة أمام القارئ؛ ليعيش فيها مرة أخرى، وليعيد قراءتها بطريقته الخاصة؛ فربما يرى فيها ما لم نره، وربما يضيف إليها ما عجزنا أو قصرنا عن إضافته".

هذا كتاب يستحق كاتبه التحية والتقدير.. فهو يتيح لنا قراءة جديدة لكنوز ـ ما تزال شديدة الحيوية والعصرية ـ من كنوز تراثنا العربى، ويأخذ بأيدى شبابنا الجاد، الباحث عن حقيقة الشعر العربى فى أصوله وجذوره ومصادره، وفى رحلته وتطوره عبر العصور، إلى عالم جديد من الكتابة الأدبية، السهلة، الرشيقة، التى جعلت من ناطحات السحاب الشعرية، ومن الحديث عنها، صرخة فى وجه الرداءة والتدنى والهبوط، ودعوة إلى الوعى بما فى ديوان الشعر العربى من كنوز.

* * *

"خالد الساكت".. والحلم الذى كان

لم أصدق أنه هو، وأنا أراه واقفا ـ فى مدخل قاعة المحاضرات الكبرى فى مبنى مجمع اللغة العربية الأردنى ـ ليرحب بى: السمت سمته، والملامح ملامحه، والقامة الممدودة الفارعة قامته. لكن، ترى ما الذى تغير فيه؟ إنها فقط جناية الزمن والعمر المتقدم، حين تلوح خطوط وغضون لم تكن تجرؤ على الظهور من قبل، ونظرة عينين تؤكد أن صاحبها يبذل جهدا غير عادى ليحدق ويرى. إذن هو بعينه: "خالد الساكت"، الأردنى السلطى ـ نسبة إلى (السلط) بلدته الجبلية الصعبة، وهناك من يكتبها: الصلت بالصاد والتاء بدلا من السين والطاء ـ: صديق نصف قرن من الزمان، وزميل دفعتى فى كلية دار العلوم، والذى أدين له ـ أنا والعديد من رفاق الدراسة وأصدقاء المرحلة ـ بالكثير!

كانت المناسبة دعوة موجهة من مجمع اللغة العربية فى الأردن؛ لأشارك فى الموسم الثقافى الحادى والعشرين للمجمع، بمحاضرة عنوانها: (اللغة العربية فى الإذاعة والتلفاز والفضائيات فى جمهورية مصر العربية: دراسة تحليلية ونقد) سعدت خلالها بلقاء العديد من الوجوه الفكرية والثقافية والأدبية واللغوية فى الأردن، فى مقدمتهم: الدكتور "عبد الكريم خليفة" رئيس المجمع، والدكتور "محمود السمرة" نائب رئيس المجمع، الذى أتيح لى التعرف عليه منذ عام ١٩٦٣، حين سافرت معارا إلى إذاعة الكويت لمدة عام، وكان هو وقتها يعمل فى مجلة (العربى) مديرا لتحريرها ومساعدا لرئيس تحريرها العالم الدكتور "أحمد زكى".

كان كل شيء متوقعا فى هذه الزيارة القريبة للأردن: إلا أن أرى "خالد الساكت". فقد زرت الأردن طوال السنوات الأخيرة عدة مرات، وفى كل مرة كنت أحاول اللقاء به، فيقال لى من أصدقائه ومعارفه: إنه لا يغادر بلدته السلط، ولا يغادر بيته لرؤية أحد، وإنه معتزل متوحد، لا رغبة لديه فى خروج أو مشاركة. وكنت أمسك نفسى فى كل مرة عن محاولة اقتحام هذا المنفى الاختيارى، وكسر حاجز هذه العزلة؛ خشية أن أتسبب فى إزعاجه أو إيلامه. لكن هأنذا أراه واقفا، شامخا، محييا، وكأنه يذكرنى بلقاءاتنا الأولى فى مستهل الخمسينيات من القرن الماضى، ونحن نطلب العلم فى الجامعة، ونهتم ـ من بين ما نهتم به ـ بدراسة الأدب العربى، وتذوق الشعر العربى. كان "خالد الساكت" وقتها واحدا ممن كنا نسميهم (بالطلاب الشرقيين)، وهو لقب كان يطلق على القادمين من أبناء الوطن العربى ـ من دول المشرق ـ للدراسة فى الجامعة، وكان هو من بينهم أكثرهم لفتا للانتباه، وجذبا للأسماع، وتأثيرا فى العقل والوجدان. وكانت مواهبه الأدبية المبكرة، وثقافته الواسعة، وحسه الجمالى المرهف، وسبقه لنا فى العمر ـ بما يقارب عشر سنوات ـ كل ذلك يؤهله للقيام بدور بارز فى الحياة الأدبية والثقافية لبلاده، وقد كان. فقد أصبح "خالد أحمد عبد الله الساكت" ـ وهذا هو اسمه الرباعى كما حفظته منذ نصف قرن ـ واحدا من أدباء الأردن وشعرائه ونقاده المعدودين، فضلا عن دوره التعليمى والتربوى العميق التأثير فى الأردن.

وعلى يدى "خالد الساكت" أتيح لنا ـ نحن الطلاب المصريين الملتفين من حوله ـ التعرف على شاعر الأردن الكبير "مصطفى وهبى التل" (١٨٩٩ ـ ١٩٤٩)، الذى عرف بلقبه الشعرى المستعار: (عرار)، وهو لقب اختاره من قول الشاعر "عمرو بن شاس الأسدى" فى ابنه عرار:

أرادت عرارا بالهوان، ومن يرد

عرارا، لعمرى بالهوان، فقد ظلم

كما أن العرار أيضا نبات صحراوى عطرى طيب الرائحة. وكان "خالد" يحفظ ديوان "عرار" الذى لم يطبع لخروجه على القيم والتقاليد، ولمهاجمة الأوضاع السياسية فى الأردن، بالرغم من أنه كان صديقا للملك عبد الله: ملك الأردن فى زمانه. لكن هذه الصداقة الحميمة المتبادلة تخللتها أوقات غضب وقطيعة، وصلت إلى درجة سجن الشاعر ونفيه خارج الأردن. وكان "خالد الساكت" ينشدنا بإلقائه المتميز وأدائه المنطلق: مختارات من شعر "مصطفى وهبى التل" ـ وهو بالمناسبة: "والد وصفى التل" رئيس وزراء الأردن الذى قتل على أيدى جماعات فلسطينية فى القاهرة ـ فنعجب بالأمرين: الشعر والإلقاء. وإليه أيضا يعود الفضل فى تعريفنا بشعر "إبراهيم طوقان" الشقيق الأكبر لشاعرة فلسطين: "فدوى طوقان"، وإطلاعنا على شعره المحظور أو المحذور. لكن (الأشقياء) من أمثال "خالد الساكت" يحفظونه ويروونه، ويرى البعض أنه أروع بكثير من شعر "إبراهيم طوقان" الذى سمح بنشره وتداوله، تماما كما كان الأمر بالنسبة لشاعر البؤس "عبد الحميد الديب". فما لا يمكن نشره من شعره ـ لإفحاشه وإباحيته ـ يفوق فى فنه الشعرى وإحكام صنعته كثيرا من شعره المنشور فى ديوانه!

أيضا، فقد كان "خالد الساكت" شعلة متوهجة من الفكر القومى، والتوجه العروبى، مجسدا بانتمائه وسلوكه حلم الوطن العربى الواحد، متطلعا إلى يوم تحقيق الحلم القومى الكبير الذى تكسر على مرحلتين: الأولى فى انفصال سوريا عن مصر، بعد قيام أول وحدة عربية بينهما، والثانية فى حدث النكسة الذى كان من نتائجه: سقوط الحلم القومى، وانهيار مشروعه الوحدوى، وتبدد الشمل الذى أدى إلى التشرذم والشتات.

ومنذ تخرجنا فى الجامعة، عام ١٩٥٦، ونحن ـ مجموعة الأصدقاء التى كان "خالد الساكت" محورها وعمودها الفقرى ـ نتسقط أخباره، ونسأل الرائحين والغادين عنه. كان وهو معنا مثقلا بأعبائه الأسرية؛ لأنه كان متزوجا لديه ولدان هما: "قيس

وزياد" قبل أن تتاح له البعثة التعليمية إلى مصر، فترك أسرته فى (السلط) وجاء وحيدا. الأمر الذى ساعده على الانخراط فى الوسط الطلابى بسرعة خارقة، فى كليتنا وفى غيرها، خاصة بين طلاب الجامعة الأمريكية، وكان فيها من زملائه وأصدقائه الأردنيين عدد كبير. كما كان لنشاط رابطة الطلاب الأردنيين ودورها فى التوعية السياسية والثقافية والترويج للفكر القومى تأثير واسع وصدى عميق. مازلت أذكر أن المرة الأولى التى أتيح لى فيها اللقاء مع الكاتب الكبير الراحل "أحمد بهاء الدين" كانت من خلال محاضرة له برابطة الطلاب الأردنيين بدعوة من مقررها الثقافى: "خالد الساكت". وبعدها عرف "أحمد بهاء الدين" ـ فى الأوساط الطلابية المصرية والعربية ـ بميوله القومية، وصداقته الواعية للفكر القومى الذى كانت تضج به الروابط الطلابية فى مستهل الخمسينيات، ويحتشد من حوله الكثيرون. كان "خالد الساكت" ـ ونحن طلاب ـ يشاركنا فى الكثير من صور النشاط الثقافى والأدبى فى الكلية، وقليلا ما كان يشارك فى الملتقيات الشعرية، بالرغم مما كنا نستمع إليه منه ـ على انفراد ـ من إبداعات شعرية كتبها قبل مجيئه إلى مصر، مازلت أذكر منها حتى اليوم ـ من قصيدة غاضبة عنوانها: (اذهبى):

أنـــا ســـويتك روحـــا يلـــهم
وخلقـــت الحـــسن والفتنـــة فيـــك
أنـــت لـــولاى جمـــاد أعجـــم
لـــن تغنيـــك منـــى أو تـــصطفيك
كنـــت ناجيـــت الـــصفا لـــو أعلـــم
وتخـــذت الـــصخر خـــدنى وشـــريكى
اذهبـــى، لـــست إذن مـــن قـــبس

أنـــا منـــه، إنمـــا أنـــت تـــراب

وتهاويـــــل خـــــداع دنـــــس

وأكاذيـــــب عـــــذاب وســـــراب

كنـــت فـــى عينـــى صـــفاء القـــدس

فـــإذا أنـــت علـــى طرفـــى ضـــباب!

كان "خالد الساكت" يحجم عن المشاركة معنا بمثل هذا الشعر الذى يفصح عن موهبته وتمكنه من فنه، لأنه كان يعد نفسه ليكون ناقدا أو باحثا قبل أى شىء آخر، وكانت صداقته للناقد الكبير "رجاء النقاش" ـ الذى كان طالبا لامعا بكتاباته الطليعية البديعة على صفحات مجلة (الآداب) البيروتية ـ تجعله يرى فيه القدوة والمثال للإنسان الذى يحترق، ويذوب من أجل كتابة صادقة ورأى حقيقى يؤمن به. كما كان حبه للكاتب القصصى الكبير "أبو المعاطى أبو النجا" ـ زميلنا فى الدراسة والمتألق بيننا بموهبته وفنه ـ كان هذا الحب يغريه بتجربة قدراته النقدية فى التحليل والتنظير، ويجد فى قصص أبى المعاطى القصيرة، خاصة قصته (الآخرون) مادة طيبة متاحة للإفصاح عن قوامه النقدى، الذى لا يزال فى حاجة إلى النضج والوعى.

لكن ها هو ذا "خالد الساكت"، صديق العمر الجميل، يضع فى يدى وأنا أعانقه ـ بعد هذا العمر الطويل ـ ديوانه الشعرى الجديد: (المسيرة) الذى أصدره منذ سبع سنوات، بعد أن أصدر عبر مسيرته الأدبية والحياتية الطويلة مجموعة من الدواوين والدراسات الأدبية والنقدية، وسيرة ذاتية، وكتبا تربوية. وهو فى هذا الديوان يلخص تجربته الإبداعية كلها، ويستصفى أجمل ما فى خصائصه الشعرية من قدرة على التكثيف والتركيز، واتساع أفق الحقول الدلالية لمعجمه الشعرى،

والحرص على الإيقاع الـواضح المساوق لـحركة النفس وجيشان الفكرة والمعنى. إنه شاعر لم يخن حقيقته ولم يتنكر لجلده ولـم يتزي بما يـجيده الآخرون من موضات. لكنه يقدم نفسه لقارئه على هذه الصورة فى القصيدة التى حمل اسمها الديوان:

أحببت الدنيا
لونها شوقى لوحة عشق، مرصودة
فى كل مكان
أحببت الدنيا
العجز حنون
والقسوة حب ملهوف
مشدود فى قلب العتمة والأغلال المشدودة
لا تسألنى،
فالعتمة شمس
تمخر سفن تتذكر أحلام الشطآن
لا تسألنى
فالصبر اليوم رفيقى الممتد
إلى جثث غطاها الزهر
وأيقظها طيف ظمآن

ويقول فى ختامها:

عدنى، واتبعنى
فأنا ماض لا أعرف معنى العودة،
للاستخذاء

obeikandl.com

عدنى

إنى، إنى يقظان

أرسم بيد غصن الزيتون

وأمحو بيد كل الأحزان

وجعى فرح الفقراء

واسمى البوح الآمل

والممتد من الصحراء إلى الصحراء

اسمى، لا أحشره بين الأصوات الخرساء

اسمى علم رف وميضا

ألقا

وعدا

بين جميع الأسماء..

"خالد الساكت" فى هذا الديوان الذى هو أحدث دواوينه، يودع وجوها لأحباء رحلوا، ومن خلالهم كان رحيل عصر، وفكر وثورة وحلم، لكنه وداع من عرف الحقيقة فاستراح، وبدا واقفا على أرض صلبة، لا تخدعه البوارق الكاذبة، ولا إغواءات العصر الوالغ فينا كالكلب المسعور. إنه يذكر طعنات السكين، ويعرف من هم المراوغون، ويستعرض فى لوحة تذكاراته: الزيف والختل والغل والدود، ويدرك كيف كان الصمود إحراقا لكل السفن، وأن المتعالى هائم فى دنيا اللذات السفلية، لكنه عائد بكل قوته، عائد إلى الجميع بعد أن تطهر من مشاعر الإحباط والهزيمة، كى يسحق الهوان عن الجباه، ويحرق الدم الذى يهان، عندئذ سوف نعرف ـ نحن قراء هذا الشعر الجميل ـ الحب والزمان والمكان، وجوهر الإنسان![1].

(١) كتب هذا الكلام قبل رحيله عام ٢٠٠٦.

عمـان فى عيون الشعراء

عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر فى بيروت، صدر هذا الكتاب البديع ـ مادة ودراسة وإخراجا ـ للباحثة الأردنية الدكتورة "رناد الخطيب"، التى أنجزته خلال رئاستها لاتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤)، وفى مناسبة اختيار العاصمة الأردنية عمان عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٢.

والدكتورة "رناد" ليست غريبة على الحياة الثقافية والأدبية فى مصر، فهى حاصلة على الدكتوراه فى التربية المقارنة من كلية التربية فى جامعة عين شمس عام ١٩٨٩. وحبها لمصر وانتماؤهـا للحياة الثقافيـة فيها، يجعلها حريصة على المشاركة فى الأنشطة الثقافية المصاحبة لمعرض القاهرة الدولى للكتاب بانتظام منذ أعوام عدة. وقـد نشـرت فى مصـر عددا من الدراسات التربوية عن: رياض الأطفال، وطفل ما قبل المدرسة، وعن التربية الاجتماعية والوطنية، فى منهج وزارة التربية والتعليم فى الأردن، باعتبارها صاحبة مؤسسة تربوية فى مرحلة التعليم الأساسى.

ومن منطلق حبها لعمـان، فقد قامت بجهد ضخم فى جمع أروع ما قيل من شعر فى عمان على مدار العصور، وقامت بدراسته وتصنيفه وتحليله، والتوقف عند أبرز ملامحه وقسماته، من خلال رؤية نقدية متميزة، وبصيرة واعية بالشعر العربى فى حركته وصيرورته، فضم كتابها (عمان فى عيون الشعراء) أربعا وعشرين قصيدة، لشعراء أردنيين وعرب، فضلا عن "الفرزدق" و"الأحوص".

يقول الفرزدق وهو يمدح الخليفة الأموى "سليمان بن عبد الملك":

فمـا كنـت عـن نفـسى لأرحـل طائعـا

إلى الـشام حتـى كنـت أنـت المـوقرا

فلمـا أتـانى أنهـا ثبتـت لـه

بأوتـاد قـرم مـن أميـة أزهـرا

نهـضت بأكنـاف الجنـاحين نهـضة

إلى خـير أهـل الأرض فرعـا وعنـصرا

فحبـك أغـشانى بـلادا بغيـضة

إلى ورومياـ بعمـان أقـسرا

ويقول "الأحوص" ـ وهو فى طريقه إلى دمشق ـ لمدح الخليفة الأموى "عبد العزيز بن مروان":

أقـول بعمـان وهـل طربـى لـه

إلى أهـل سـلع أن تـشوقت نـافع!

وكيـف اشـتياق المـرء يبكـى صـبابة

إلى مـن نـأى عـن داره وهـو طـائع

أهـم لأنـسى ذكرهـا، فيـشوقنى

رفـاق إلى أهـل الحجـاز نـوازع

هذا الشعر القديم فى عمان على لسان "الفرزدق والأحوص"، يجاوره فى هذا الكتاب شعر للبياتى وعبد المنعم الرفاعى وحيدر محمود ومصطفى وهبى التل وعلى عبد الله خليفة وعصام صدقى العمد وعبد الله رضوان... وغيرهم، مفسرا هذا العشق الذى حمله الشعراء لعمان التى يصفها "حيدر محمود" بأنها: المدينة التى

بنت بيوتها من صخر جبالها، وكحلتها بسواد العيون. والتى يعود تاريخها إلى أكثر من ستة آلاف عام، ولا تزال تمعن فى البقاء والتطور، لتدخل ـ بجدارة ـ إلى القرن الحادى والعشرين، وتستعد تماما للاستمرار إلى آخر الزمان. مدينة تليق بالشعر، ويليق الشعر بها، وتستحق أن تكتب بأجمل الحروف، وترسم بأحلى الألوان، وتعزف نغمـا وراء نغم، لأنها هى ذاتها القصيدة واللوحة والسيمفونية التى لا تمل سماعها القلوب والأرواح.

والدكتورة "رناد الخطيب" ترى فى عمان: مدينة تنفرد بعبقرية المكان، والمكان والزمان والإنسان. وهى العناصر الرئيسية التى تتشكل منها هوية الوطن وهوية المواطن على حد سواء. كما أنها ترى فى القصائد التى جمعتها: قلادة تطوق جيد مدينة عمان، المدينة العربية الأصيلة والمعاصرة. وهى قصائد مختلفة الصياغة، منها ما هو على النمط الكلاسيكى، ومنها ما هو على النمط الحديث، منها ما هو قديم يعود إلى مطلع القرن الماضى، ومنها ما هو جديد. منها ما هو أردنى ومنها ما هو عربى، منها ما هو لشعراء بارزين مرموقين على المستوى المحلى والعربى، ومنها ما هو لشعراء ذوى تجارب تطمح فى الوصول إلى مستوى أفضل.

وفى المقدمة الضافية التى كتبتها لكتابها تشير الدكتورة "رناد" إلى أن عمان واحدة من المدن العربية القليلة ذات التاريخ الطويل، فهى مهد (العمونيين) وآثارها الرومانية تشهد على عظمتها فى العهد البيزنطى، ونشطت فى التاريخ الإسلامى، ذكرها المقدسى بقوله: "وعمان على سيف البادية، ذات قرى ومزارع، رستاقها البلقاء، معدن الحبوب والأنعام، بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء، ولها جامع ظريف بطرف السوق مفسفس الصحن، وقد قلنا إنه يشبه مكة، وقصر "جالوت" على جبل يطل عليها، وبها قبر "أوريا" عليه مسجد، وملعب "سليمان"، رخيصة الأسعار، كثيرة الفواكه".

يقول الشاعر الأردنى "حيدر محمود" فى إحدى قصيدتيه اللتين يضمهما

الكتاب:

تظلين أنت الوحيدة
تظلين أغلى قصيدة
لأنى كتبت حروفك بالدم
فكنت الحقيقة والوهم
وكنت ابتداء حياتى الجديدة
أنا قبل عينيك
كنت شراعا مضاعا
يجذف فى التيه
يقطع حباته حبة، حبة
ويبحر عبر الفيافى
يفتش عنك
يصارع غيلان كل المنافى
ويطوى البقاعا!

ويقول الشاعر "عبد المنعم الرفاعى":

عمان يا زهرة فى كف غانية
هل تذكرين وقد عشنا هوى وصبا
باحت بأحلامنا النجوى ورددها
واديك، وانطلقت خلف البطاح ربى
وكم عقدنا خطانا والتقى وطر
على شهى رؤانا وانتشى طربا
وكم وقفت على الأفلاك أسألها

obeikandl.com

هل غير طيفك أغرى فى المدى وسبى!

ويقول الشاعر العراقى "عبد الوهاب البياتى":

كان يمانيا هذا البرق الأزرق
هذا السيف المسلول
خرجت من تحت عباءته
وردة هذا الليل المقتول
وقلت لحادى العيس: تمهل!
فثريا الملكوت
كتبت فى أوراق البحر الميت
عينا، ميمـا، ألفا، نون
صبغت بالفضة أزهار الليمون
فلماذا فى الحب نموت
إذا كان الحب يموت!
لكن الحادى تحت ضياء ثريا الملكوت
وضع الحب مكان السيف!

فى تأملها للأربع والعشرين قصيدة التى انتظمها هذا الكتاب، تسجل الدكتورة "رناد" كيف تنوعت الرؤية الشعرية إلى عمان، فهى المحبوبة وهى أجمل الأسماء، وهى درة الحاضر، وهى قدرة الشعب، وهى حصن العروبة، وهى زمن الحب الجميل، وهى بلاد الفتح والدرة الهاشمية، وهى مواطن الذكريات، وهى غابات الأسمنت، وهى السيف المسلول، وهى أخيرا: الحلم الجميل الذى تحقق بالمشاركة والملامسة.

وهى تسجل أيضا، كيف أن هاجس الحاضر والمستقبل خالط الرؤية الشعرية

بضراوة فى هذه القصائد، ونحن نرى عمان (محبوبة) من طراز مغاير، لأنه طراز المأوى وحائط الأمان وسكينة القلب. ونراها غابة أسمنت، ترتفع وتمتد بقسوة راسخة وامتداد عمرانى تتآكل أمامه مساحات الخيال. ونراها أيضا خبزا وملحا لمن فقدوا المأوى، فكانت الوطن البديل والأم الرؤوم، والذراعين المفتوحتين فى رعاية وحنان وحدب وأمومة، والسيف المسلول الذى ينتظر لحظة الحسم واليقين الفاصل. والواقع الذى تجسد لرائيه بعد أن ظل طويلا يحلم باللقاء، ويجسد بعين الخيال شوارعها وبيوتها ومرابعها وناسها، والحياة فيها ولكن من بعيد، بعيد.

لقد نجحت الدكتورة "رناد الخطيب" فى أن تقدم من خلال إنجازها لهذه المجموعة الشعرية ـ اختيارا ودراسة وتحليلا ـ شاهدا على العصر الشعرى الذى نعيشه فى وقفة من وقفاته الوطنية والقومية، اتجه فيها الشاعر إلى عمان المدينة والمحبوبة والحلم والأمل والواقع والحاضر والمستقبل والموقع والتاريخ والزمان والمكان.

وهو الأمر الذى يغرينى بأن أتساءل: ومتى يكون للقاهرة مثل هذه المجموعة الشعرية البديعة: (القاهرة فى عيون الشعراء)؟، وانطفأت الإجابة فى صدرى وأنا أعقب فى حسرة: ولمن أتجه بهذا السؤال؟!

* * *

فى رحيل "فدوى طوقان"

وفدوى طوقان هى شاعرة فلسطين الأولى، وثانية شاعرات العرب الكبيرات، بعد الشاعرة العراقية الرائدة "نازك الملائكة" ـ بارك الله فى عمرها وشفاها من مرضها العضال ـ ثم هى شاعرة الحلم الفلسطينى فى مده وجزره، بطولاته وانكساراته، ترحل عن دنيانا فى مستهل عامها السادس والثمانين، وهى تشهد بعينيها ـ من نوافذ غرفة العناية المركزية التى قضت فيها أسابيعها الأخيرة ـ الدمار الذى يصيب مدينتها الحبيبة "نابلس" على أيدى المغتصبين البرابرة ـ وهم يحاولون اقتلاع مواطنيها الفلسطينيين من بيوتهم وأرضهم وتاريخهم. لقد أغمضت "فدوى طوقان" عينيها على وجود يتداعى، وحلم يتراجع ويتبدد، بعد أن قضت أكثر من ستين عاما ـ هى عمر تاريخها الشعرى ـ تتغنى بالأرض والوطن، وتحمل قصائدها مفردات فلسطين، وكأنها الذاكرة المرئية لكل قارئ عربى، وهو يقرأ عن: نابلس وبيسان وجرزيم وطوباس ورفيديا، الجغرافيا الشعرية الحية، التى نجحت فى إبقاء اسم فلسطين، شاخصا فى دائرة الرؤيا والذاكرة، محركا للهمم والعزائم، قادحا لزناد الحس القومى والوعى بقضية العرب الأولى: فلسطين.

فى القاهرة، وبمساعدة حميمة من صديقها الناقد الكبير "أنور المعداوى" نشرت "فدوى طوقان" ديوانها الأول (وحدى مع الأيام) فى عام ١٩٥٢، ثم تتابعت دواوينها: وجدتها، أعطنا حبا، أمام الباب المغلق، الليل والفرسان، على قمة الدنيا

وحيدا، تموز والشيء الآخر، اللحن الأخير. بالإضافة إلى سيرتها الذاتية البديعة، التى صاغتها فى لغة شعرية شديدة الصفاء والعذوبة، والحرارة، فى كتابيها: رحلة جبلية: رحلة صعبة، والرحلة الأصعب.

أتيح لى أن أتعرف على الشاعرة الكبيرة فى أمسية شعرية أقامتها الجمعية الأدبية المصرية فى مقرها بعابدين عام ١٩٦٦. وشرفت بمشاركتها مع مجموعة من الشعراء كان من بينهم الشاعر الفلسطينى "عز الدين المناصرة"، وكان يدير الأمسية الشاعر الكبير "صلاح عبد الصبور".

ولم يكد يمر عام، حتى فوجئت "بفدوى طوقان" تنتظرنى فى مكتب المذيعين بالإذاعة، وكنت وقتها فى تسجيل تليفزيونى مع "صلاح عبد الصبور" للبرنامج التليفزيونى (الأمسية الثقافية). وفوجئت أنا "وصلاح" بوجودها. كانت تريد التعرف على الإذاعية الكبيرة "سامية صادق" التى حمل صوتها الرقيق المعبر كثيرا من قصائد "فدوى" إلى ملايين المستمعين. ثم دارت الأيام والسنون، والتقيت "بفدوى" مرة ثالثة وأخيرة فى دورة "أبى القاسم الشابى" التى أقامتها (مؤسسة البابطين) فى مدينة فاس بالمغرب، وكانت "فدوى" معنا على الطائرة من القاهرة إلى فاس، وطوال أيام الدورة التى كرمت فيها "فدوى" بجائزة الإبداع الكبرى، كانت هى كوكب المهرجان، ونسمته الصافية.

وكما كانت نكسة ١٩٦٧ حدا فاصلا فى الرؤية والموقف الشعرى لكثير من الشعراء العرب، فقد كانت كذلك بالنسبة "لفدوى" التى عدلت عن غنائها الشجى لأحزانها ومواجعها الذاتية، وتأمل واقعها المنفرد الذى يجعلها حبيسة المكان، مقيدة الأحاسيس والمشاعر، سجينة ترسف فى تقاليد البيئة والمجتمع. عدلت عن هذا كله إلى موقف رافض للهزيمة، مؤازر للنضال والصمود، مانحة أمومتها الشعرية والقومية لشعراء الشباب من جيل الستينيات فى الأرض المحتلة: "محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران"... وغيرهم، وهم الذين تفجرت عوالمهم الشعرية بإبداع مغاير، وحساسية مختلفة ولغة شعرية باترة،

بعيدة عن الفيض الرومانسى، الذى يغمر قصائد فدوى. وعلى الرغم من وعيهم بهذه المغايرة، فقد ظلوا يرون فى "فدوى" الأم والعمة والأخت الكبيرة كما سماها "محمود درويش" الذى قال فى وداعها: "كانت فدوى طوقان أختى الكبيرة، كانت تعجبنى رقة شعرها التى توازى رقتها الشخصية، كانت أحد المعابر الذاتية والثقافية لفلسطين، وشعرها شعر عابر للأجيال".

بدأت شاعرة رومانتيكية، لكن هزيمة ١٩٦٧، أحدثت رجة كبيرة فى لغتها، فتحولت إلى شاعرة مقاومة من غير أن تتنازل عن نزعتها الرومانتيكية لارتباطها بشعر الطبيعة والحب والعذوبة الإنسانية، ما جعلها مستمرة وحية فى موسوعة الشعر العربى، ولعلها من أكبر الشعراء فى تاريخ فلسطين".

ثم يلخص "محمود درويش" وداعه "لفدوى" فى جملة نابضة يقول فيها: "فى نفس كل فلسطينى شىء من شعر فدوى طوقان". اختصتنى فدوى طوقان بالعديد من رسائلها ـ فى أعقاب نكسة ١٩٦٧ ـ التى كانت تنجح فى تهريبها إلى القاهرة عبر بيروت، حاملة كلماتها المفعمة بالتمرد والثورة والرفض، وكأنها قد تحولت ـ بمفردها ـ إلى جيش مقاتل، طلقاته وذخيرته كلمات مغموسة بدم القلب، وقصائد متوهجة بإرادة النضال والبطولة والتحدى. لم تكن تخاف على نفسها وهى المقيمة فى نابلس، فى قبضة الاستعمار الاستيطانى الإسرائيلى، وكل ما يعنيها: وصول كلماتها إلى الصحف والإذاعات العربية. كنت أذيع هذه القصائد من خلال برنامج (لغتنا الجميلة) الذى بدأت تقديمه من إذاعة البرنامج العام بعد حلول النكسة بقليل (أول سبتمبر ١٩٦٧) وأحملها إلى الصديق الصحفى الكبير الراحل "كمال الملاخ" الذى يسرع إلى نشرها فى صفحته الأخيرة من الأهرام، وهكذا كان يقرؤها ويستمع إليها الملايين، وتنبض قلوبهم مع قلب "فدوى" وشعرها الذى استطاع أن يخترق الأسوار. وعندما أتيح "لفدوى" أن تلتقى بشعراء المقاومة الفلسطينية الشباب فى الرابع من شهر مارس عام ١٩٦٨ فى (مدينة حيفا) كانت كلماتها إليهم كاشفة عن جوهر العلاقة الحميمة ـ إنسانيا وشعريا ـ بينها وبينهم وهى تخاطبهم بقصيدتها (لن

أبكى):

أحبائى
مسحت عن الجفون ضبابة الدمع
الرمادية
لألقاكم وفى عينى نور الحب والإيمان
بكم، بالأرض، بالإنسان
فواخجلى لو أنى جئت ألقاكم
وجفنى راعش مبلول
وقلبى يائس مخذول
وها أنا يا أحبائى هنا معكم
لأقبس منكمو جمرة
لآخذ من مصابيح الدجى
من زيتكم قطرة
لمصباحى
وها أنا يا أحبائى
على يدكم أمد يدى
وعند رؤوسكم ألقى هنا رأسى
وها أنتم كصخر جبالنا قوة
كزهر بلادنا الحلوة
فكيف الجرح يسحقنى؟
وكيف اليأس يسحقنى؟
وكيف أمامكم أبكى؟
يمينا، بعد هذا اليوم لن أبكى!

obeikandl.com

أحاول الآن ـ دون جدوى ـ استعادة تلك السنوات الرائعة من بواكير العمر الجميل، لحظة اكتشافى لشعر "فدوى" وأنا بعد طالب فى الجامعة، وقراءتى لديوانها الأول (وحدى مع الأيام)، وغرقى فى نهر متدفق بالعذوبة والرقة والصفاء، وافتتانى باللوحات الشعرية البديعة، التى صورت فيها "فدوى" بريشتها الملهمة مشاهد الطبيعة الفلسطينية الخلابة، وصورها الفاتنة فى إحساس عارم ونشوة متقدة ولغة طيعة وخيال محلق. ولحظة أخرى واكبت التحاقى بالإذاعة قرب ختام الخمسينيات، وبدء تقديم الزميلة الإذاعية الكبيرة "سامية صادق" لبرنامجها العتيد (حول الأسرة البيضاء) وإتاحتها الفرصة لصوت إذاعى جديد أن يأخذ طريقه إلى الأسماع عبر العديد من حلقات هذا البرنامج ـ وهو يقدم مختارات من شعر "فدوى"، فى دواوينها الأولى: وحدى مع الأيام، ووجدتها، وأعطنا حبا. وسرعان ما أخذت "سامية" تشدو بصوتها وأدائها المتميز بقصائد "فدوى"، وكانت قصيدة (كلما ناديتنى) بمثابة اللحن المميز لاختيارات تلك المرحلة:

يا حبيبى، كلما ناديتنى
هاتفا عبر المسافات: تعالى
عبقت فى خاطرى، يا جنتى
جنة، وانهل ضوء فى خيالى
وبدا لى
عالم ريان وردى الظلال
من شباب وفتون وغوى
أسكرت آفاقه خمر الهوى
وتعرت فيه أطياف الجمال

وصولا إلى قول فدوى:

نادنى من آخر الدنيا ألبى

كل درب لك يفضى فهو دربى
يا حبيبى، أنت تحيا لتنادى
يا حبيبى، أنا أحيا لألبى
صوت حبى
أنت حبى
أنت دنيا ملء قلبى
كلما ناديتنى جئت إليك
بكنوزى كلها ملك يديك
بينابيعى، بأثمارى، بخصبى
يا حبيبى!

ولقد رحلت "فدوى"، وبقى من بعدها الشعر والسيرة والصوت والصدى، لأرق شاعرة فى ديوان الشعر العربى كله.

* * *

obeikandl.com

سيبقى الحب سيدى

فى سبتمبر عام ستة وثمانين، تلقيت كتابا صغير الحجم دقيق الملامح، يحمل هذا العنوان وعليه اسم الشاعر الكبير "نزار قبانى" وكلمات إهدائه الرقيقة لى. كنت قد قرأت "لنزار" على مدار رحلته الشعرية الطويلة ـ خاصة فى خواتيم الخمسينيات ومفتتح الستينيات، وعلى صفحات مجلة (الآداب البيروتية) ـ كثيرا من كتاباته النثرية. لم أنس من بينها رسالة بعثها من مدريد ـ وكان وقتها يعمل فى إسبانيا عضوا فى السلك الدبلوماسى السورى ـ إلى صديقه الدكتور "سهيل إدريس" رئيس تحرير مجلة الآداب، فنشرها "سهيل" على أنها لوحة قلمية فاتنة بقلم "نزار"، وقرأناها نحن ـ شداة الأدب والإبداع فى ذلك الحين ـ على أنها قصيدة بديعة، ولكن فى قالب نثرى، من قبل أن يشيع ما يسمى الآن بقصيدة النثر. كان فى رسالة "نزار" البديعة موسيقى خفية لا ندرى من أين تجىء أو تنهمر، وإيقاع شجى موار لا يتوقف ولا يهدأ. وأذكر أننى علقت عليها لبعض الأصدقاء بأن موهبة "نزار" فى الكتابة النثرية ـ إذا كانت دائما على هذا القدر من الصفاء والدفق والفنية والتجلى، فإنها ـ بالقطع ـ تفوق موهبة "نزار" الشعرية، التى صنعت له صورته فى العالم الأدبى، باسطا ظله على النصف الثانى من القرن العشرين، باعتباره شاعرا جريئا، مختلفا، خارجا على الأعراف والتقاليد، فى مرحلتيه اللتين اهتم فيهما بالمرأة ـ فى مجتمعه السورى الشديد المحافظة حتى الاختناق فى أربعينيات القرن ـ ثم بالهم

القومى على مدار الوطن العربى كله. وشاعرا صاحب لغة شعرية تغرى ببساطتها وشفافيتها وعفويتها، حاول كثيرون أن يلبسوها، وأن يجعلوها كساء لقصائدهم ولكن هيهات!

كان نزار يقول فى رسالته إلى "سهيل إدريس":

فى إسبانيا لم أحتج إلى دواة
ولا إلى قلم أسقى به عطش الورق
عيون "مورينا روساليندا" ترشنى بالشوق الأسود
فيا مطر العيون السود، سألتك لا تنقطع
الرقص الإسبانى هو الرقص الوحيد الذى يستحيل فيه الإصبع إلى فم المواعيد العطشى..
النداء الساخن..
كل ذلك يقال بنقرة إصبع
بشهقة إصبع
أنا فى محلى
وسيمفونية الأصابع هناك فى محلها
و"تنورة" أندلسية، سرقت زهر الأندلس كله
ولم تسأل
وسرقت زهر حياتى ولم تسأل
فيا مطر العيون السود، سألتك لا تنقطع!

كنا نقرأ هذه الكلمات "لنزار" وغيرها ونقول: الله.. الله هذا هو الشعر، هذا هو الوجد الذى يشعل جمر الكلمات، وتنسكب كيمياؤه فى لغة شديدة النقاء والأسر، عميقة النفاذ والتأثير، لا لبس فيها ولا إيهام، لا غموض ولا تعقيد ولا التواء،

تغرى ببساطتها، لكن الأغبياء فقط هم الذين يظنون أنهم يحسنون مثلها. الغريب أن نزار نفسه لم يدع أن هذا شعر، ولم يصف رئيس تحرير (الآداب) هذا الكلام بأنه شعر، ولم يضع عنوانا عليه سوى أنه رسالة من "نزار قبانى". وكان المعنى واحدا. فالشاعر والناثر يعرفان جيدا حدود الكلام، ويحرصان كل الحرص على التصنيف الحقيقى، ولا يريدان أبدا إشاعة الفوضى، وغش سوق الأدب، بتسمية شىء على غير حقيقته وبغير حقيقته.

وحين تصفحت كتاب "نزار" (سيبقى الحب سيدى) تذكرت على الفور رسالته الإسبانية عن "مورينا روسالينا" راقصة (الفلامنكو) السوداء العينين.

يستهل نزار كتابه بكلمات لشاعر فرنسا "أراجون" يقول فيها: "لا ثقافة بغير حب، إن الذى يحبنى يخلقنى" وكلمات للموسيقى "جورج موستاكى" يقول فيها: "الفنانون يعيشون ذكورتـهم وأنوثتهم فى وقت واحد، إنهم ينجبون أعمالا رائعة كما تنجب الـمرأة طفلا". وكلمات لأمير شعراء روسيا "بوشكين" يقول فيها: "أعلن اتحادى بالحرية، أعلن اتحادى بالآخرين"!. وكلمات "لجان كوكتو" يقول فيها: "الفن ليس طريقة معقدة لقول أشياء بسيطة، بل طريقة بسيطة لقول أشياء معقدة".

الكتاب بعد ذلك لوحات نثرية ـ شعرية ـ الروح والصياغة على غرار رسالته الإسبانية. المسافة بينها وبين إبداعه الشعرى ليست كبيرة، فهما ينبعان من معين واحد، ويمتحان من شاعرية واحدة. لكن "نزار" يعطى لكل من اللونين فى إبداعه حقه فى التجمل والتشكل ولبس ما يلائمه من ملبس لغوى وموسيقى. لا يهدف إلى خلط أو تخليط، فالأمور لديه واضحة والحدود بينة، وليس بينها مشتبهات. لا مانع أن تجىء بعض اللوحات شعرا صرفا، تحمل جوهرها الموسيقى المنضبط، لكن النسق العام للكتاب ينفلت من هذه الموسيقى ويتأبى عليها ولا يصطنعها..

يقول نزار فى لوحاته الشعرية:

اصهلى يا فرس الماء الجميلة
اصرخى يا قطة الليل الجميلة
بللينى برذاذ الماء والكحل
فلولاك لكانت هذه الأرض صحارى
بللينى بالأغانى القبرصية
ما تهم الأبجديات، فأنت الأبجدية
يا التى عشت إلى جانبها العشق،
جنونا وانتحارا
يا التى ساحلها الرملى يرمى لى زهورا، ونبيذا قبرصيا،
ومـحارا

ويقول نزار تحت عنوان (الديك):

سبق السيف العذل
سبق السيف العذل
غرق المركب فى الليل بنا
قبل أن نبدأ فى شهر العسل
واستقال الديك من منصبه
تاركا من خلفه
عشرين ديوان غزل
واستقال الليل من عبء الهوى
واستقال الثغر من نار القبل
فلماذا أنت فى المسرح يا سيدتى
بعد أن مات البطل؟

obeikandl.com

ويقول تحت عنوان (بروتوكول):

بوسعك أن تجلسى حيث شئت
ولكن..
حذار بأن تجلسى فى مكان القصيدة
صحيح بأنى أحبك جدا
ولكننى فى سرير الهوى
سأنسى تفاصيل جسمك أنت
وأختار جسم القصيدة!

ويقول نزار فى لوحاته النثرية التى يضمها كتابه:

للمرأة التى أحبها
قدمان صغيرتان جدا
تشبهان كلام الأطفال
ولجسدها رائحة سرية جدا
كرائحة الكتابة الممنوعة!

ويقول:

كنت أدخن مائة سيجارة فى اليوم
وتوقفت عن الانتحار ببطولة
والآن
أحاول التوقف عن تدخين امرأة واحدة
فلا أستطيع

ويقول تحت عنوان (موسيقى):

أمطار أوروبا

obeikandl.com

تعزف سوناتات "بيتهوفن"
وأمطار الوطن
تعزف جراحات "سيد درويش"
وأنا بدون تردد
مع هذا الإسكندرانى
الذى يضىء فى حنجرته قمر الحزن
ومآذن سيدنا الحسين

لقد كان "نزار قبانى" مبدعا كبيرا فى شعره وفى نثره، وكان شاعرا فى الحالين، تنسكب شاعريته على كلماته، كما ينسكب المطر على وجه الدنيا، فيصهل برق الشتاء، وتحمل أنثى الربيع.

* * *

obeikandl.com

مواقف "أبى على".. وشعره الجميل

وأبو على هو الشاعر المبدع، أستاذ الفلسفة الدكتور "حسن طلب"، فى ديوانه الجديد البديع (مواقف أبى على وديوان رسائله وبعض أغانية) الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة، ولم تتح لى قراءته إلا أخيرا. وحسن طلب" ـ الشاعر ـ بالنسبة لى ولألوف غيرى واحد من الأصوات الشعرية ذات الأصالة والتفرد لغة وعالما واهتمامات وفكرا وجدلا مع الذات ومع الواقع.

ومن البداية أقول ـ بلا حرج ـ " إنه فى طليعة الشعراء دارسى الفلسفة والمتأثرين بها، الذين نجحوا فى ترويض المقولات الفلسفية وإذابتها فى نسيج شعرى، مائيته منسابة ومتدفقة، وعفويته تشى بالاقتدار الفنى، فهو بهذا المعنى ركب الفلسفة وطوعها؛ ولم يسمح لها بالطفو فوق ثبج بحوره الشعرية.

وهو أيضا، بالنسبة لى ولألوف غيرى، صاحب إنجاز شعرى يتنامى ويتصاعد، طبقة فوق طبقة، وأفقا وراء أفق، ومغامراته ووثباته الإبداعية باهرة التجليات منذ مجموعته الأولى: وشم على نهدى فتاة (١٩٧٢)، وسيرة البنفسج (١٩٦٨) وأزل النار فى أبد النور (١٩٨٨)، وزمان الزبرجد (١٩٩٠)، وآية جيم (١٩٩٢)، ولا نيل إلا النيل (١٩٩٣) وبستان السنابل (٢٠٠٠)، وقصائد البنفسج والزبرجد (تقديم الناقد الكبير الراحل د. "شكرى عياد" ٢٠٠٢م) وقيد النشر قصيدته الطويلة (حجر

الفلاسفة).[1]

وعلى مدار هذه الرحلة الحافلة باقتناص القصائد الجميلة، نجح "حسن طلب" فى أن يفاجئ قارئه بالمزيد من جرأته وشجاعته وكسره لشوكة الثابت والمألوف، وزلزلة التقاليد والمقولات البالية وتحريك الراكد والآسن. تلتمع فى نسيجه الشعرى مفردات المعجم القرآنى فى توظيف دلالى مغاير، يذكرنا بأصل السياق، وينطلق بنا إلى الجديد المضمر والخبىء، الذى يعلن عن نفسه، مهما حاول صاحبه ستره، كما يعلن العطر عن فوحانه حتى لو اختنق. وهذا الديوان (مواقف أبى على) حافل بمفردات هذا المعجم التى أتاح لها البناء الشعرى مجالات دلالية واسعة، يحلق من خلالها فكر المتأمل وخيال المتلقى فى مثل: شدتنى بحبل ليس من مسد، فأخذنا الميثاق، وما أنسانيه سوى الغيظ، سأنبئك بتأويل الرمز، مجمع ما بين الجبلين وبرزخ ما بين البحرين. انطلاقا إلى النسج على إيقاع صياغات قرآنية: أعوذ بالشذى، من شر هاذ إن هذى، ومن مشعبذ إذا ما شعبذا. وقال: قد بوأتك المنزلة الحق (ومادة "التبوء" فى ترددتها القرآنية المختلفة موجودة فى عدد من الآيات القرآنية الكريمة فى سور: الأعراف والحج وآل عمران ويونس والحشر ويوسف بمعنى الإسكان والسكن والسكنى والتجهيز والتبيين).

والمعجم القرآنى فى شعر "حسن طلب" خاصة فى ديوانيه: (آية جيم) و (لا نيل إلا النيل) وفى هذا الديوان الجديد (مواقف أبى على) من شأنه أن يغرى باحثا جادا بدراسة تكشف عن الكثير من أسراره وحيله الفنية والفكرية، ومجالات دلالاته المعاصرة.

و "حسن طلب" ـ فى وجهيه: الإنسانى والشعرى ـ فهما فى رأيى لا ينفصلان، أو يجب ألا ينفصلا ويتباعدا ـ إنسان وديع حيى خجول، لا يدلل بما يمتلكه من

(١) صارت فى ديوان قرب ختام عام ٢٠٠٦.

موهبة أو يبدعه من شعر، فى حين تمتلئ الساحة بأمثال ذلك الشويعر الردىء الذى كل بضاعته شبكة علاقات عامة وتفنن فى خدمة (الكبار) بإنجازاته الأرشيفية والدعائية على الطريقة التى يسخر منها الصحفيون المحترمون ويستهجنونها: طريق (كل واشكر)، والذى لا يخجل من التشدق باغترافه من فيض عالم الوجد الصوفى. بالرغم من أن أمثال "حسن طلب" يعرفون عن الفكر الفلسفى وديوان العشق الإلهى، ومنجز الإبداع الصوفى ألف ضعف لما يتشدق به هذا الشويعر الردىء، الكاذب فى كل ما يدعيه، ولكنهم لا يتباهون أبدا بهذه المعرفة، وإذا أبدعوا فإنهم يبدعون عن وعى وأصالة، ويترفعون عن صغائر مثل هذا الصغير الذى سيظل قزما مهما أتاح له أصحاب الأكباد المريضة والمرارات المحتقنة ـ لأنهم يكرهون البشر وأنفسهم أيضا ـ مهما أتاحوا له من صفحاتهم الصفراء مجالا لفضح سمومه ونشر سوءاته التى يعرفها الجميع عنه، ويؤرقه دوما أنه يطالعها فى عيونهم شاخصة لا تريم! فى هذا الديوان الجديد "لحسن طلب" نبوءة بالطوفان القادم، يقتلع الأخضر واليابس، وصورته الشعرية تتكئ على صورة طوفان نوح:

وصل الطوفان الآن مداه

فكم من مقترف للإثم أناب

ارتفعت نحو سماء الله يداه

وتاب

وكم ولد قد فر من الوالد

كم زوج من زوجته

وأخ قد أنكر هذا اليوم

أخاه

وعاداه

كم انهدمت أكواخ وصروح

وتجاور مبغى وضريح!

وفى القرآن الكريم: ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ (سورة عبس: الآيات من ٣٤ إلى ٣٧).

وفيه أيضا: ﴿ **يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ** ﴾ (سورة المعارج: الآيات من ٨ إلى ١٤).

ثم يقول "حسن طلب" فى رسالته الخامسة (الطوفان... الطوفان):

وصل الطوفان الآن مداه الأقصى

وطما، وازداد كثيرا

وعرفنا كل عدو، من صاحبنا

فإذن ليس علينا

لو أغرقنا من سرقوا كل مراكبنا

فى تلك الساعة، أصبح من واجبنا

أن نتعقب من خدعونا

من تركونا

ونجوا بقواربنا

أليس فى هذا الشعر المتدفق كالطوفان ـ لحسن طلب ـ ما يذكرنا بيوميات النبى المهزوم الذى يحمل سيفا فى مسرحية "صلاح عبد الصبور" (ليلى والمجنون)؟

يا أهل مدينتنا

يا أهل مدينتنا

هذا قولى

انفجروا أو موتوا

رعب أكبر من هذا سوف يجىء

لن ينجيكم أن تعتصموا

منه بأعالى جبل الصمت

أو ببطون الغابات

لن ينجيكم أن تختبئوا فى حجراتكم

أو تحت وسائدكم

أو فى بالوعات الحمام

لن ينجيكم أن تلتصقوا بالجدران

إلى أن يصبح كل منكم ظلا مشبوحا

عانق ظلا!

لكن مشهد الطوفان عند "حسن طلب" يتكئ ـ كما سبق أن قلت ـ على مشهد القيامة فى القرآن الكريم، ويجلو دلالاته السياسية والمجتمعية فى قلب الدلالة العظمى: فساد الكون بأكمله، فى رسالته الأخيرة التى جعلها: (بلا عنوان) طالبا

obeikandl.com

من ابنه على أن يأخذ له بالثأر ـ بعد أن شب عن الطوق ـ من سمسار اللحظة وزبانية الماضى، وربيب النعمة والإمعة، والخانع والقانع والراضى والمتخصص فى فقه الأزمة، والمثقف التابع وخازن بيت المال، وكاتم أسرار البيت العالى، ونديم الوالى والوالى ... و..

هذا المضمون الشعرى المتوهج بالرؤية الغاضبة الساخطة المتمردة، والرفض الكامل لسوءات العصر ـ ومن بينها أمثال الشويعر الردىء الذى أشرت إليه وإلى أمثاله، دون أن ألوث القلم بأسمائهم ـ هذا المضمون المتمرد تؤازره وتواكبه غنائيات شعرية إنسانية عذبة، ينساب فيها نفس "حسن طلب" الشعرى متدفقا، حانيا جسورا، ممتلئا بالشجن الشفيف، والوجد الحميم:

جمر على كبد

كيف التقينا دونما وعد

وصرنا اثنين فى أحد

بل كيف أفلتنا من الهول الكبير

وصادفتنا أيكة

قلنا سنهجع تحتها

لهنيهة

حتى يصح الجسم من سقم

وتشفى الروح من تبريحة

والعين من رمد!

ثم افترقنا،

دون أن نحظى

بما يسترجع الأحلام من تأويلها

أو يحفظ الذكرى

من البدد!

"حسن طلب" فى ديوانه الجديد (مواقف أبى على) يبنى مواقفه على رفرف العصر وروحه المشبوبة، متجاوزا مواقف النفرى ومخاطباته، التى يعرفها ويدرك أسرارها ومجازاتها ـ بما لا يقاس به الوعى الزائف للشويعر الردىء ـ ويختتم (موقف الشذى) بأبيات عمودية البنيان محكمة النسج، رصينة الإيقاع والتقفية، تذكرنا بعراقة لغته وفحولتها وطواعيتها له فى الوقت نفسه، وهو يقول فى ختام حواريته:

فقلت: سعيد من بلذته اغتذى

فقال: هنيئا للذى قد تلذذا

فقلت: أرانى بالشذى غير عارف

فقال: إذن أقبل تصر فيه جهبذا

فقلت: من العشاق من يحذقونه؟

فقال: جميعا، هم ومن حذوهم حذا

فقلت: ألاكم حاذق مات دونه

فقال: وكم فذ عليه تتلمذا!

فقلت: ذوت منذ ارعويت لقانتى

فقال: كذا دأب الذى يرعوى... كذا

وأهلا بمواقفك ورسائلك وأغانيك البديعة يا أبا على!

"شوقى بغدادى" و "البحث عن دمشق"

فى منتصف الخمسينيات، كان اسم "شوقى بغدادى" يمثل بالنسبة لقراء مجلة (الآداب) البيروتية فى مصر، واحدا من أهم الأصوات الشعرية فى سوريا وأجملها وأكثرها امتلاء بروح التجديد. ويومها كانت مجلة (الآداب) جسرا رائعا، بل الجسر الأول للتواصل بين المبدعين من شتى بقاع الوطن العربى من ناحية، وبينهم وبين قرائهم من ناحية أخرى.

وكان "شوقى بغدادى" و"على الجندى" و"عبد الباسط الصوفى" ـ الذى مات منتحرا فى (كوناكرى) وهو فى ميعة الشباب ـ يمثلون شعر الطليعة، بالرغم من اختلافهم فكرا واتجاها وطريقة تعبير.

وامتلك "شوقى بغدادى" من العناد والإصرار والمثابرة، ما جعله يواصل الإبحار فى قلب العواصف السياسية العاتية التى اجتاحت سوريا منذ ذلك التاريخ البعيد، واحتمى طويلا بوظيفته الأثيرة لديه ـ وظيفة المعلم ـ عن صخب العمل العام ومسئولياته المتقلبة فى كل من الإعلام والثقافة. وبهذا البعد عن مسار الطموحات، التى كانت سببا فى هلاك غيره وخفوت إبداعهم، استطاع أن ينجز مشروعه الشعرى المتمثل فى إحدى عشرة مجموعة شعرية هى: أكثر من قلب واحد (١٩٥٥)، لكل حب قصة، أشعار لا تحب، بين الوسادة والعنق، صوت بحجم الفم، ليلى بلا عشاق، قصص شعرية قصيرة جدا، عودة الطفل الجميل، رؤيا يوحنا

الدمشقى، شىء يخص الروح، وأخيرا:البحث عن دمشق (٢٠٠٢) بالإضافة إلى مختارات بعنوان: من كل بستان وأناشيد وقصص شعرية للأطفال ومجموعات من القصة القصيرة، ورواية عنوانها (المسافرة) وثلاثة كتب فى: المقالة والخاطرة والدراسات.

شاعر له هذا الحضور والتأثير، وهذه الموهبة التى استطاع أن ينأى بها عن الزلازل والبراكين، لابد أن يترك عالم التدريس ورحلته الطويلة مع التعليم آثاره المتمثلة لديه فى صفاء اللغة ونقائها- حتى كأنها لغة اختارها صاحبها بعناية ليدلل على عشقه للجمال بدءا من جمال اللغة – وذوق شعرى عربى عصم صاحبه من العجمة أو الهجنة أو التخليط الذى وقع فيه غيره بدعوى الحداثة أو استدعاء لغة الواقع أو الإبهار بمغايرة المألوف، وبناء شعرى محكم، لا يسمح بإفراط أو استرسال أو فقدان للنبض و الحيوية والتوتر. وهو فى حاليه الإبداعيين: شاعرا عموديا أو شاعرا حرا، يمتلك أدواته الفنية، ونفسه الشعرى، ويصول ويجول، لأنه من المؤمنين بجوهر الشعر الحقيقى، مهما اختلفت صوره وأشكاله.

يهدى "شوقى بغدادى" أحدث دواوينه (البحث عن دمشق) إلى عشاق الأمكنة القديمة قبل أن يفقدوها، كما فقدوا زمانهم القديم.

وفى توضيح صغير يقول: "نجمت فكرة هذا الديوان بعد ظهور قصيدتى المسماة: (البحث عن دمشق) عام ١٩٨١، وما سمعت عنها من تعليقات مشجعة أنها تصلح فاتحة لمجموعة شعرية. وهى علاقة تركت أثرها فى وجدانى الشعرى منذ أمد بعيد، وفى نصوص متنوعة. غير أن المسألة تعمقت واختلفت كما يبدو مع القصيدة الجديدة من حالة رومانسية إلى حالة أكثر تعقيدا، وأبعد مدى مع تراكم السنين والتجارب. وهكذا اتخذت قرارى منذ عشرين عاما ونيف: أن أعزل كل ما سوف أكتبه عن هذه العلاقة الحميمة بدمشق ـ التى أسرتنى وألهمتنى الكثير ـ لإصداره فيما بعد فى ديوان مستقل خاص، ولم أكن أظن أن المدة سوف تطول إلى

عشرين عاما، ولكن هذا ما حدث. ولعل السبب هو: أننى تركت لنفسى ملء حريتها فى العودة إلى هذا الموضوع الحميم من حين لآخر، دونما افتعال أو قصد مباشر مسبق؛ كى تغدو الكتابة غناء خالصا للروح وذكريات العمر الجميل مع أعرق مدينة على وجه الأرض، وقد بدأت معالمها الأصيلة تختفى أمام الزحف الأخرق لحضارة هجينة، وصار ضروريا البحث عن تلك الأصالة الجميلة وحمايتها شعرا على الأقل، والكشف عنها صونا للذاكرة الإنسانية والوطنية من التشويه والمسخ اللذين يهددان البشر والبلد".

فى قصيدة عنوانها: (نزوات شامية فى الغوطة الشرقية).

يقول "شوقى بغدادى":

أنا الذى ابتدأ
ليس لأن الشمس كانت بين غيمة وغيمة
ترشقنى بغمزة
وتغرب
لست أنا الرائى
أنا المرئى
والأرض التى ترحب
ليس لأن المطر الخفيف كان واعدا
كأن حبى القديم كان حاضرا
والشاعر العاشق كان يكتب
أنا الذى اخترعته
وعندما هما
وكان صادقا صدقته
وعندما طلبت أن يهدأ بعض الشىء

لم يعبأ وظل يسكب
ليس لأن برعما
بحجم حبة يابسة من الأرز
أنعشته نسمة دافئة
فصار مدخلا لغاية طازجة
أنا الذى كنت وراء قشرة البرعم
أستحثها وأثقب
ليس لأن لوحة الفضاء
كانت فى ثوان تخطف ابتسامة
ثم تقطب
لست أنا الرسام
كان مشهدى يوحى
وكانت السماء تستطيب دهشتى
فترسم الأشياء إرضاء لها
لابد أننى كنت جميلا وقتها
أنا بدأت
كانت حصتى جيدة
وكنت ألعب

ترى، ما الذى سيقوله الشعراء المصريون لو فكروا كما فكر الشاعر السورى الكبير "شوقى بغدادى"، واستنفروا ذاكرتهم المتخمة؛ ليكتبوا بدورهم (البحث عن القاهرة)!

obeikandl.com

كلمات من طمى الفرات

فى موعده تماما، يجىء هذا الكتاب الجميل، الصغير الحجم، الصادر ضمن مطبوعات كتاب العربى، السلسلة الفصلية التى تنشرها (مجلة العربى الكويتية).والكتاب استعادة قراءة لصفحات من الثقافة العراقية المعاصرة، بأقلام نخبة من الأدباء والنقاد العرب، كما يقول الدكتور "سليمان العسكرى" ـ رئيس تحرير العربى ـ فالكتاب دعوة إلى أن نغوص معا، بحثا عن الجوهر: جوهر العراق، التاريخ والحضارة والثقافة، والإنسان الذى دام طويلا، وسوف يدوم طويلا على أرض السواد.

ويوضح الدكتور "العسكرى" ـ فى مقدمته الأدبية للكتاب: أن (أرض السواد) هى أحد الأسماء التى يسمى بها العراق، مثل: بلاد الرافدين أو ما بين النهرين. وهو الاسم الذى اختاره الأديب المعروف "عبد الرحمن منيف" اسما لرواية من ثلاثة أجزاء يعرض فيها جانبا من تاريخ هذا البلد ا لضارب بجذوره فى التاريخ. ذلك السواد من تلك الطبقات من الطمى التى راكمتها مياه دجلة والفرات على وجه هذا البلد منذ آلاف السنين، ومن هذا الطمى علت هامات النخيل، وارتفعت حدائق بابل طابقا بعد آخر، فى رغبة مستحيلة للوصول إلى السحب. وعلى ألواح الطين نقش "حمورابى" أول شريعة تنظم لا العلاقة بين البشر الذين يسكنون على حافة النهر فقط، ولكن بينهم وبين الحيوانات التى يتعاملون معها أيضا.

وسارت جيوش "نبوخذ نصر" إلى آفاق الأرض، وبنى المناذرة مدينتهم "الحيرة" وأحاطوها بحدائق متوهجة بشقائق النعمان. ثم جاءت جيوش الفتح الإسلامى دما جديدا سرى فى عروق أرض السواد فأعادها لدورة الحضارة من جديد. ارتفعت رايات (بنى العباس)، وحطت القوافل فى "المربد" فصاح كل الشعراء، وعكف (الوراقون) على نسخ كل التراث الإنسانى، حتى جاء (التتار) مثل كابوس من الحرائق والدم. رحل التتار وجاء الترك والديلم والسلاجقة، ثم بنو عثمان والإنجليز ورحلوا جميعا، وبقى الإنسان العراقى مغروسا فى أرض السواد.

من هنا، يرى الدكتور "سليمان العسكرى" ـ وهو محق ـ أن العراق لم يكن مجرد فاصلة فى كتاب التاريخ، ولكنه كان التاريخ نفسه. ولم يكن مجرد مرحلة عابرة فى قصة الحضارة، ولكنه أحد صناعها. فذلك الفرات العظيم قد خالف كل أنهار الدنيا، ولم يصنع حضارته فى الشمال حيث ينبع، ولكنه صنعها فى الجنوب حيث يصب. لذا، فإن مكانة العراق الحقيقية ليست فى نشرات الأخبار العابرة، ولكنها ـحيث يجب أن تكون ـ حجر الزاوية فى مجمل المصير العربى. من أجل ذلك، جاء هذا الكتاب البديع محاولة لاستجلاء روح العراق، الوجه البهى له: وجه الثقافة العراقية التى كانت ومازالت رافدا مهمـا من روافد الثقافة العربية.

ينقسم كتاب (كلمات من طمى الفرات) إلى ثلاثة محاور:

المحور الأول عنوانه: (شعراء من أرض السواد) يتناول من شعراء العراق: الزهاوى وأحمد الصافى النجفى والجواهرى وبدر شاكر السياب والبياتى ونازك الملائكة وعاتكة الخزرجى".

المحور الثانى عنوانه: (العراق مشاهد وذكريات) يتضمن مقالات "لأحمد حسن الزيات" بعنوان: ذكريات ومشاهد من بين النهرين، وموضوعا عن: بيت الحكمة

فى بغداد، وأثره فى النهضة الفكرية خلال العصر العباسى، وآخر: عن الدراسة العلمية فى النجف الأشرف باعتباره أهم مركز دينى عند الشيعة الإمامية،

وثالثا: عن النقد الأدبى الحديث فى العراق.

أما المحور الثالث فعنوانه: (لقاءات ومواجهات) ويضم ثلاثة لقاءات بين "د. على الوردى و د. جليل العطية، وبين محمد سعيد الصكار وهانى مظهر، وبين فؤاد التكرلى وماجد السامرائى".

من أطرف ما يضمه الكتاب، مقال للناقد السورى- الذى رحل أخيرا – "محيى الدين صبحى" عن "الجواهرى"، ومحاولة لتفسير ظاهرة العنف والغضب فى شعره. وهو الذى هلل للثورات، ثم هرب من بطشها: إذ انقلب عليها حين رآها لا تحقق العدالة والكرامة. وقد خرج من كل ذلك منفيا صفر اليدين، حتى صار سؤال الحاكمين والمثقفين على السواء: ماذا يريد الجواهرى؟ يجيب "محيى الدين صبحى": كان يريد أولا: أن يكون شاعرا حرا، وثانيا: يريد تغيير هذا المواقع العربى المتحجر المتخلف بأى ثمن من دم ونار، يريد الحرية والكرامة والعدالة لكل وطن وكل مواطن. يريد مملكة للقيم تساند رغبته الجامحة فى التغيير.

ويورد "محيى الدين صبحى" حوارا دار بين "الجواهرى وسعيد عقل"، قال فيه سعيد: "أصعب الشعر شعر الغزل". فيعلق "الجواهرى" مهللا: إذن الشاعر هنا يكون معرضا إلى ملامسة الدعارة، والشعر الشعر أبعد شيء عنها!

ويختم بلهجة نبى: الشعر عندى شهامة بشهامة.

ويعلق "صبحى" بأن الشهامة فى شعر "الجواهرى" شهامة أمة وليست كبرياء فردية تتغيا الترفع أو الغنى أو الجاه. فقد كانت هذه مبذولة له على الداوم فى القصر الملكى مع الملك "فيصل" سنة ١٩٢٧ وفى النيابة، أو فى إصدار الصحف بعد ذلك. كان "الجواهرى" يطمع ثم يصد وينفر ويخسر ثم يطمع:

عجيب أمرك الرجراج

لا جنفا ولا صددا

تضيق بعيشة رغد

وتهوى العيشة الرغدا

ولا تقوى مصامدة

وتعبد كل من صمدا

ولربما ندر فى الدنيا وجود رجل "كالجواهرى" فى قوة حواسه وعمق تمتعه بكل واحدة منها على حدة، فهو يتقرى سطوح الأشياء باللمس كأنه أعمى، ويصغى إلى خرير دجلة كأنما الإنسان يعيش بسمعه فقط. وقد قال لى مرة: يا أبا ميسون، المرأة التى لا يصيح بى عطرها: الحقنى، الحقنى، ليست امرأة!

فأجبته: لكن الأرتيست فقط تضع عطرا صارخا بالناس أن يتبعوها.

فقال: صوت العطر الخافت ليس هامسا!

ويورد "محيى الدين صبحى" من حديث "الجواهرى" ما يدل على أن قوة الحواس فى تركيبه الجسدى كانت سببا من أسباب عنفه الشعرى، أن تستوفز حواسه، ويدخل فى حال اهتياج يمتزج فيها الطرب والرقص والغضب والصخب. يقول "الجواهرى": "مع كل قصيدة أشعر أننى أكتب الشعر لأول مرة، أى والله، وأتعجب من ذلك مثلما هو البطل المسرحى حين يواجه الجمهور. ففى كل مرة يشعر بالرهبة، وحين تكتمل القصيدة أشعر بالنشوة. بالمناسبة، فإننى أغنى وألحن القصيدة، يخيل لى وأنا أرقص فى باحة القصيدة، أن شيئا من الجنون قد مسنى أو أن نوعا من الخبل قد اعترانى، أن شيئا ما يحدث لا أعرف كنهه حين تنتابنى الحال وأدخل مملكة الشعر. أحيانا تراودنى حالة هياج وصراخ حتى تهدأ روحى باكتمال

الولادة. وعندما كانت شياطين الشعر أو ملائكة الفن تنزل على، فلا أريد لأحد أن يقطع سلسلة أفكارى وإلا أنفجر. أريد عالمى الخاص، لا أريد لأى كان أن يشاركنى فيه، حتى العائلة أدعوها لتذهب لأى مكان".

وتكتب الدكتورة "ريتا عوض" عن: "ماذا يبقى من كلمات البياتى" ثورة وأشعار وأحزان كثيرة!

يقول البياتى: "إن الطبيعة تنهى حياة الكائن المتناهى، تقف صاغرة منهوكة القوى أمام الفنان والثورى لما يحملانه من الخصائص المركبة للكائن المتناهى واللامتناهى. فالفن والثورة إذن انتصار على الطبيعة والحياة. واستئثار بهما".

وتعلق الباحثة قائلة: "بهذا القول يرتفع البياتى بالفنان والثورى إلى ما فوق مصاف البشر؛ ليستعير سمة من سمات الخلود. فالشاعر يتميز بمعاناة الدراما الوجودية، إنه "جلجامش"، بطل الملحمة السومرية، اتحدت فى ذاته صفات الآلهة وصفات البشر، فكان بطلا أسطوريا جسد ملحمة الإنسان فى بحثه عن الخلود". وقد وازى "البياتى" بين الرحلة الأسطورية التى صورتها الملحمة السومرية، ورحلة طويلة قام بها فى شبابه المبكر عبر الحرائق الشعرية التى كان يحترق بها، وسمى رحلة "جلجامش" سيرة ذاتية.

لقد ظل جلجامش حيا فى ذاكرة التراث الإنسانى، خلدته قصيدة ملحمية كبرى، وجدت مكتوبة على ألواح حجرية فى أرض العراق، وسيظل "البياتى" مثله ومثل غيره من الشعراء والفنانين حيا فيما أبدعه من شعر، أسهم به إسهاما متميزا فى إرساء أسس الحداثة فى شعرنا العربى المعاصر، وفى خلق حساسية شعرية جديدة حولت مسار القصيدة العربية فى هذا العصر وفتحت أمامها آفاقا لم تبلغها من قبل. يقول البياتى: "كل هذا قادنى إلى إيجاد الأسلوب الشعرى الجديد الذى أعبر به، لقد حاولت أن أوفق بين ما يموت وما لا يموت، بين المتناهى واللامتناهى، بين الحاضر وتجاوز الحاضر، وتطلب هذا منى معاناة طويلة فى البحث عن الأقنعة

الفنية، وقد وجدت هذه الأقنعة فى التاريخ والرمز والأسطورة. والقناع هو الاسم الذى يتحدث من خلاله الشاعر نفسه، متجردا من ذاتيته".

وقد تجسد هذا كله فى ديوانه "الكتابة على الطين" وفى "قصائد حب إلى عشتار". يقول البياتى مخاطبا إلهة الحب والحياة:

طفلة أنت، وأنثى واعدة

ولدت من زبد البحر

ومن نار الشموس الخالدة

كلما ماتت بعصر، بعثت

قامت من الموت، وعادت للظهور

أنت عنقاء الحضارات.

وأنثى سارق النيران فى كل العصور

تقول "ريتا عوض": "هذه المرأة المعشوقة، الطفلة البريئة والأنثى الشهية، هى "أفروديت"، إلهة الحب اليونانية المولودة من زبد البحر، وهى عشتار السومرية إلهة الشمس، معطية الحياة الدائمة الحيوية والتجدد، تبعث من موتها كل صباح. وهى العنقاء التى يلتهب رمادها لتولد من جديد، وهى أنثى (بروميثيوس)، سارق النار، الواهب الإنسان سر الآلهة، إنها الثورة المتجسدة التى ستزيح الفقر والموت، وتهب الإنسان والحضارة حياة أبدية:

لون عينيك

وميض البرق فى أسوار بابل

ومرايا ومشاعل

obeikandl.com

وشعوب وقبائل

غزت العالم

لما كشفت بابل أسرار النجوم

لون عينيك

سهوب حطمت فيها جيوش الفقراء

عالم السطوة والإرهاب باسم الكلمة

وغزت أرض الأساطير

وشطآن العصور المظلمة!

أما أطرف ما يضمه هذا الكتاب فهو: الفصل المنشور ضمن المحور الأول فيه بعنوان (مرحى غيلان) الذى نشر مقرونا باسمى باعتبارى كاتبه، وهو شرف لا أدعيه، فلا أذكر أنى كتبت هذا الكلام فى أى وقت، خاصة أنه يحمل تاريخ نوفمبر ١٩٨٨، وكانت كل علاقتى (بالعربى) فى ذلك الحين مقصورة على نشر القصائد، لا المقالات والدراسات، وربما كان فى الأمر سهو غير مقصود!

تبقى التحية للذين فكروا فى هذا الكتاب ـ على هذه الصورة المختارة ـ تذكيرا بالعراق: أرض السواد، وإبداعه الحى المتواصل عبر العصور، وأهم رموزه الأدبية فى العصر الحديث، ومكانته الباذخة باعتباره ـ بلغة "سليمان العسكرى" ـ حجر الزاوية فى مجمل المصير العربى!

بغداد خانتنى!

هذا هو عنوان المجموعة الشعرية الجديدة للشاعر "حسن توفيق"، الشاعر المصرى الذى يعمل فى قطر منذ سنوات طويلة، ولولا حرصه على أن يظل اسمه موجودا وإبداعه الشعرى مقروءا ومتداولا فى حياتنا الأدبية، لباعدت الغربة بينه وبين الذاكرة الشعرية لهذا الزمان. من هنا، كان اهتمامه بنشر كتاباته وإبداعاته الشعرية والنثرية منذ ظهرت مجموعته الأولى: (الدم فى الحدائق) عام ١٩٦٩، ثم توالت بعدها دواوينه: أحب أن أقول لا، قصائد عاشقة، حينما يصبح الحلم سيفا، انتظار الآتى، قصة الطوفان من نوح إلى القرصان، وجهها قصيدة لا تنتهى، ما رآه السندباد، ليلى تعشق ليلى، عشقت اثنتين، مجنون العرب: بين رعب الغضب وليالى الطرب، جسد يتشمس بالحسد.

فضلا عن عدد من الدراسات والتحقيقات أهمها: اتجاهات الشعر الحر، "إبراهيم ناجى": قصائد مجهولة، شعر "بدر شاكر السياب": دراسة فنية وفكرية، أزهار ذابلة وقصائد مجهولة للسياب، "جمال عبد الناصر": الزعيم فى قلوب الشعراء، الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور "إبراهيم ناجى"، الأعمال النثرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجى. رحلات شاعر عاشق، الأعمال الشعرية المختارة للدكتور إبراهيم ناجى وهذه الأعمال الأخيرة من الدراسات والتحقيقات – تكشف عن جانب من أهم جوانب الشخصية الثقافية "لحسن توفيق"، وهى كونه مؤرخا، يمتلك أساليب التحقيق والتوثيق، والبحث الدءوب فى المراجع والمصادر،

والدوريات والحوليات، سعيا وراء اكتشاف ما هو مجهول أو ناقص فى أعمال الشعراء وآثارهم القلمية خاصة فى حالة الدكتور "إبراهيم ناجى" الذى ظلم ديوانه ظلما فادحا، حين نشرت طبعته الأولى فى صورة مشوشة مضطربة بعد أن تسللت إليها قصائد عديدة للشاعر "كمال نشأت" ـ وكانت بكل أسف طبعة وزارة الثقافة فى ذلك الحين ـ كما ظل بعض شعره وكتاباته النثرية وترجماته مجهولا حتى كشف عنه "حسن توفيق" وأعاده إلى موضعه الصحيح من تراث "ناجى".

على غلاف هذه المجموعة الجديدة (بغداد خانتنى) يبادر "حسن توفيق" قارئه بأنها قصائد ومقامات فى حب العراق، وهو ما يفسر القسم الثانى من الكتاب الذى يحمل عنوان: (مقامات عصرية) كتبها الشاعر محاكيا لغة المقامات القديمة المسجوعة وملأها ـ أيضا على طريقة مقامات "بديع الزمان والحريرى" ـ بالعديد من الاستشهادات الشعرية، فى قالب رمزى ساخر، يحاكى استخدام الحيوان فى كتاب (كليلة ودمنة). فهناك الثعلب والأرنب والطاووس والقطط والسلاحف والخنزير والحمار والقرد وصولا إلى الأخطبوط والأسماك. والطريف: أن اللغة فى يديه طيعة سلسة، وأن روح الفكاهة المرة والسخرية القاتمة لم تفارقه، وهو يعرض للواقع فى بغداد وغير بغداد من أقطار العالم العربى.

وشاعرنا "حسن توفيق" يصارح قارئه منذ الصفحة الأولى بأن هذا الكتاب: تحية حب لكل أرض العراق، تحية إجلال لأرواح الشهداء، من الأطفال والنساء ومن المدنيين والعسكريين، وتحية عميقة لكل من يقاوم دون أن يتراجع أو يساوم. وتحية تقدير لكل العراقيين الذين يعرفون معنى أن يظل العراق يضمهم أجمعين، بعيدا عن أولئك (الصامتين) الذين يترقبون أن يحصلوا على غنائم، وبعيدا عن الذين يتصورون أن بإمكانهم أن يجعلوا شمال العراق دولة مستقلة لهم.

الجديد فى هذا الكلام كله: أن الكتاب ـ بشعره ونثره ـ يمثل شهادة مبدع مصرى على ما جرى فى العراق وعلى الأرض العربية منذ سقوط بغداد يوم الأربعاء ٩ أبريل

سنة ٢٠٠٣ لكنها شهادة من خارج مصر، من واقع الغربة فى بلد عربى هو قطر، ومن بين عناصر وجاليات عربية عديدة، تنعكس ردود أفعالها وتياراتها الفكرية وانتماءاتها على مواقفها. وشاعرنا فى هذا الخضم يستصفى ويستخلص موقفه وكلماته بدأب المؤرخ، الذى يجعل من شعره سجلا لتتابع المشاهد والمواقف، وغياب وجه بغداد وانتمائه وتلاشيه، بعد أن كان متوهجا فى قلب الذاكرة الشعرية، والمقاربة البصرية والإنسانية. من هنا كانت كلماته فى قصيدته (بطاقة حب لبغداد) التى اختار من بينها عنوان مجموعته الشعرية الجديدة، وهو يقول:

بغداد خانتنى، وأخفت وجهها عنى

لم يبق لى أحد سواها، ما دهاها!

كيف تفلت كفها منى

بغداد خلتنى مع السفهاء والأجراء

مغتربين عن حزنى

بغداد خانتنى

ثم يقول:

بغداد تسكننى وأسكنها

وأنساها ببلواها، فتحضننى

وتظل تلهو حولها أفعى معربدة

تطوقها، لترعبنى

بغداد باقية

وباق جمرها بسمائنا العطشى إلى وطن

يوما ستصحو،

حيث تمسح دمعتى الحرى

وتضحك وهى توقظنى

المؤرخ "حسن توفيق" يستدعى من ذاكرة التاريخ ما حدث لبغداد على أيدى المغول سنة ١٢٥٨، من سبعمائة وست وأربعين سنة، وينقل هذه السطور من كتاب (مختصر تاريخ العرب) الذى ألفه "سيد أمير على" وترجمه إلى العربية "عفيف البعلبكى"، وهو يقول: "فى صباح اليوم التالى لاقتحام بغداد، أصدر "هولاكو" أوامره بنهب المدينة وذبح سكانها، ويحتاج وصف تدمير تلك المدينة إلى براعة مؤرخ مثل "جيبون". فالنساء والأطفال الذين خرجوا من بيوتهم يحملون المصاحف على أكفهم، ويتضرعون إلى الجنود، كى يبقوا على حياتهم، وطئت أجسادهم بحوافر الخيل. أما الكنوز الفنية والأدبية التى جمعها الخلفاء المتعاقبون بكثير من المشقة والعناء، فقد دمرت تدميرا خلال بضع ساعات، وغرقت شوارع المدينة طوال ثلاثة أيام بالدماء، واصطبغت مياه دجلة بالحمرة عدة أميال، واستمرت أعمال التخريب والتقتيل ستة أسابع، فدمرت القصور والمساجد والضرائح، إما بالنار أو بمعاول؛ بغية الحصول على قبابها الذهبية، وأغمد السيف فى رقاب المرضى فى المستشفيات، والطلاب والأساتذة فى الكليات، وفى الضرائح نبشت قبور الأولياء والأئمة كبار العلماء، وألقيت الكتب طعمة للنيران، أو مياه دجلة. وهكذا فقدت الإنسانية تلك الكنوز التى تجمعت خلال خمسة قرون" المؤرخ الشاعر يطالب قارئه بالمقارنة بين هذه الأحداث المأساوية، وما حدث فى بغداد اعتبارا من الأربعاء ٩ أبريل سنة ٢٠٠٣ مؤكدا أن الخيانة قد لعبت دورها فى الحالتين، مستشهدا بما ذكره "محمد بن طباطبا" صاحب (الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية) واصفا كيف دخل المغول بغداد بقوله: "إنه فى يوم الخميس رابع المحرم من سنة ٦٥٦هـ ثارت غبرة عظيمة شرقى بغداد على درب (بعقوبا) حيث عمت البلد،

فانزعج الناس من ذلك وصعدوا إلى أعالى السطوح والمنابر يتشوفون، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان أى:"هولاكو" وخيوله ولفيفه وكراعه، وقد طبق وجه الأرض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها، ثم شرعوا فى استعمال أسباب الحصار، وشرع العسكر الخليفى يقصد: جنود الخليفة المستعصم فى المدافعة والمقاومة إلى اليوم التاسع عشر من شهر المحرم، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة على سور بغداد من برج يسمى (برج العجمى) من ناحية باب من أبواب بغداد يقال له باب كلوازى، وكان هذا البرج أقصر أبواب السور وتقحم العسكر السلطانى هجوما ودخولا، فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ، ما يعظم سماعه جملة فى الظن بتفاصيله".

هى إذن الخيانة التى جعلت "حسن توفيق" يستشهد بقول "بدر شاكر السياب" الذى رحل عن عالمنا قبل أن يشهد سقوط بغداد بتسعة وثلاثين عاما:

إنى لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون!
أيخون إنسان بلاده؟
إن خان معنى أن يكون...
فكيف يمكن أن يكون؟

"حسن توفيق" فى ثنايا مجموعته الشعرية الجديدة يقدم معارضات عصرية، ممتلئة بالسخرية والحس الفكاهى الأسود، للعديد من القصائد والمعلقات المشهورة، بدءا بلامية العرب "للشنفرى" ولامية العجم "للطغرائى" حين يقول:

على الفرات دم والعار فى دمنا فيا فرات اغتسل بالنار واكتحل

ولامية امرئ القيس، حين يقول متهكما:

ألا عم صباحا أيها الفندق الغالى فقد بات فيك الأهل فى يوم زلزال

ومعلقة عنترة، حين يقول:

ما أعجب التلفاز من متكلم يأتيك بالخبر الذى لم تعلم

ونونية ابن زيدون، حين يقول:

الموج يجرفنا والشوق يدنينا يا جنة الروح يا أحلى أمانينا

ونونية المتنبى المشهورة بأن كل أبياتها حكم حين يقول:

يسقط الخائب الجبان مهانا حين يرضى بحبه الأوثانا

كما يعارض أيضا داليته المشهورة فى هجاء كافور، ويقول:

"عيد بأية حال عدت يا عيد" والعزم مفتقد والجبن موجود!

ويدهش قارئ هذه القصائد وغيرها من قدرة "حسن توفيق" على التقمص واستدعاء اللغة والأساليب التى كتبت بها هذه القصائد التى يعارضها فى سياق عصرى يسقط عليه مواقفه وآراءه وأحكامه على الرجال والمواقف. وهى فى جوهرها هجائيات لعصر وزمان وحكام ونظم وأوضاع، هجاء لا تنقصه طرافة التناول أو حرارة السخرية ومرارة الحس الفكاهى. إنه فى مجموعته الشعرية هذه ، بكل ما صنعه وافتن فيه، يكشف عن وجه أصيل من وجوهه ـ بعد وجه المؤرخ فيه ـ وهو كونه واحدا من ظرفاء مصر، وندمائها الكبار، ومسامريها، يمتلئ جرابه بالكثير من الحكايات والتواريخ والوقائع، انتثر بعضها على صفحات كتابه، وجعل منه شاهدا على سقوط عصر، وهوان تاريخ.

وليس "حسن توفيق" بالوحيد الذى سقط فى شرك (المؤرخ) على حساب (الشاعر)، فقد سقط بعض نقادنا أيضا ـ بفضل غواية الإنترنت وشبكاتها المعلوماتية ـ فى شرك (المؤرخ) بدورهم، فأصبحت كتاباتهم أقرب إلى التأريخ الأدبى، الذى يزدحم بالوقائع والتواريخ والمعلومات، على حساب البصر النقدى الجديد، والرؤية العصرية الكاشفة، والدور الذى كان مأمولا منهم.

عبلة الرويني.. وشعراؤها الخوارج

أحترم كثيرا قلم "عبلة الرويني"، وأستثنيها ـ من بين كتابات كثيرة حولها تطفح بالأحقاد والضغائن ـ لكنها استطاعت بما تمتلكه من صفاء فى القلب والعقل، وقدرة صارمة على الموضوعية والإنصاف تقترب كثيرا من حد السيف أن تنجو من التلوث وأمراض الصفراء، وأن تكسب كتاباتها احتراما متزايدا، منذ كانت إطلالتها البديعة من خلال كتابها الفريد عن "أمل دنقل" (الجنوبى)، ومنذ أطفأ وهجه كثيرا مما كتبه المحترفون عن أمل، لكن كتابها يظل ممتلكا لدرجة عالية من الكشف والبوح والصدق، وعمق النفاذ إلى الشاعر والإنسان، بل هى الدرجة الأعلى.

وفى كتابها الجديد (الشعراء الخوارج) ـ الصادر عن الدار المصرية اللبانية ـ تحقق "عبلة الرويني" قفزة جديدة واسعة فى مجالها الأثير: (الشعر المصرى والعربى المعاصر)، من خلال حوارات ـ أو صدمات ـ استثنائية، محكومة بالوعى والإحاطة وتجهيز الحيثيات وإغلاق منافذ الهروب والتوجه نحو مناطق الوخز والاستثارة، وتوفير المساحة الرحبة للتأمل والتحليل ـ قبل الحوار وبعده ـ واستخلاص القسمات الرئيسية والملامح الأساسية، من غير إغراق فى التفاصيل، والارتفاع المستمر بمستوى الحوار والصدام والجدل إلى مستوى الندية: الفكرية والفنية، فى حضور كامل لمختزنات القدرة على المساءلة، واحتشاد كامل بكل حرفية المواجهة: نفسيا ونقديا.

وبعيدا عن الإيحاءات والدلالات المختلفة والملتبسة، لكلمة (الخوارج) تقدم "عبلة" لكتابها بأن الخوارج هنا ـ فى هذا الكتاب ـ قوس جمالى، يتباين شعراؤه بالضرورة وأشكال خروجهم، كل بحسب ثقافته وبيئته وتكوينه، وكل بحسب مشروعه واقتراحه ورؤيته للعالم من حوله، لكنهم جميعا تنويعات على إيقاع الرفض وزحزحة ما هو قائم. وهى تتوقف أمام السجال المطروح فى الشعر وفى الواقع ـ داخل قصائد الشعراء أنفسهم ـ نافذة إلى جوهر وعمق الرؤى الحداثية التى يقدمها الشعر ذاته: ذلك التوتر والتنكر والنفى، ذلك التجاوز المستمر للآخرين للذات ولكافة التوازنات الخارجية والداخلية، سعيا وراء توازنات أخرى جديدة وقيم ثقافية وجمالية مختلفة، ربما تكون أكثر توترا.

وحوارات عبلة فى هذا الكتاب ـ أو منازلاتها مع ثلاثة عشر شاعرا ـ هى بالدرجة الأولى طرح لفكرتها عن كل منهم، وامتحان لقدرتها على النفاذ إلى المحجوب من عوالمهم الداخلية، وتجريب لأسلحتها المتعددة فى مجال المواجهة والكشف، واستخدام ذكى لحسها النقدى وطرائقه الموضوعية، فهى لا تطرح أسئلة بقصد التعرف، أو استدراج الآخرين إلى الحكاية وغواية الاسترسال فى الشرح والتبرير، والوقوع فى شرك الإعجاب بالذات والولع النرجسى. لكن فى يدها مبضعا يعرف طريقه إلى موطن العلة والسؤال. من هنا يصبح السؤال مواجهة لا رجاء صحفيا لعمل حوار أو استكمال تحقيق. وكثير من أسئلتها يحمل المعنى ويعتصر الفكرة ويركز الغاية من قبل أن تنطلق الإجابة. بمعنى أن السؤال يقول ما لا تقوله الإجابة، التى آثرت المراوغة أو المشاغبة أو التعمية، لكن قارئ الكتاب يظلمه ظلما فادحا إذا توقف عند مجرد السؤال الصادم والحوار الاستثنائى.

هناك ـ باستمرار ـ وعلى مدار الكتاب كله ـ وقفات الإضاءة والربط والتحليل واستخلاص الأفكار والرؤى، واطراح السائد ـ بفوضى وجهالة وعشوائية ـ وجلاء الصحيح والحقيقى والمتميز، وعدم الوقوع فى شرك الدعايات الممجوجة والزعيق العالى النبرة، لستر الخواء والفجاجة. تقول "عبلة الروينى" ـ مثلا ـ فى

تعليقها على فكرة التعددية التى طرحها "حلمى سالم": "التعددية لا ينتجها الحداثيون المشغولون بإنتاج ذواتهم، ولكن تكتبها الأجيال الجديدة فى أشكال خروجها وتخريبها المتواصل لكل فرضيات ومعايير الحداثة، كتابة جديدة مقتحمة المشهد الشعرى بعشوائية ركيكة. كتابة بلا كتاب، بلا تمايزات، لا تثبيت فيها لمعنى، بل تنطوى على استحالة المعنى، كتابة مؤجلة تفتقد الكيان المتبلور فى حركة. يبدأون من (جهالــة) لا تمتلك حتى أدواتها الجمالـية والمعرفيــة، فترتد إلى أصحابها خائبة لا أحد يدرى بها بما يفضح انتشارها الهش. لا تأثير ولا تأثر. وليظل المشهد ثابتا على مشهد (الحداثة) ليس باعتباره الأكثر تأثيرا ولكن باعتباره الأكثر تماسكا. وإذا كان "حلمى سالم" قد راجع موهبة شعراء جيله أمام حدث الانتفاضة، فعليه أن يراجع أيضا حداثتهم المعزولة والشاحبة".

بمثل هذه الوقفات يكسب الكتاب حضوره النقدى الساطع وأفقه الجدير به فى مجال الدراسة الأدبية المعاصرة، مستفيدا من وعى صاحبته المكتمل بحركة الأجيال المتلاحقة فى الشعر المصرى والعربى الحديث بدءا بجيل الريادة فى حركة الشعر الحر حتى السطور الأخيرة للجيل الذى يتخلق مع بدء الألفية الثالثة. وهى تمتلك ميزة الانخراط والانفصال، الالتحام والابتعاد. تقترب بكليتها للمجاورة والتعرف، وتبتعد بكليتها للحكم والتأمل عن بعد، عن مسافة، كما كان "صلاح عبد الصبور" يقول: "أجافيكم لأعرفكم". ولقد أتيح "لعبلة" ـ فى شهادتها الرائعة من خلال هذا الكتاب الوثيقة ـ أن تكون فى قلب المعترك الشعرى، وأن تكون رحلتها المشتركة فى الحياة مع "أمل دنقل"، نافذة مفتوحة على العديد من العوالم الفوقية والتحتية لكثير من شعراء هذا الزمان فى مصر وفى خارج مصر. وبفضل موهبتها النادرة فى الالتقاط والرصد وذاكرتها الحية فى الاستعادة والاستشهاد، تمتلك "عبلة" ما يؤهلها لكتابة سردية من طراز جديد، كتابة لا تنقصها جرأتها المقتحمة، وعيناها النافذتان الكاشفتان، وفضاؤها المترامى، الذى لا يدرك حقيقة أبعاده، فقراء الموهبة والتجربة الذين تضطر إلى إزاحتهم كلما همت بالحركة والانطلاق.

فى رحيل "عبده بدوى"

حين تقدمت للمشاركة فى المهرجان الشعرى الذى يقيمه اتحاد الطلاب فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٥٣، وأنا بعد طالب بالسنة الأولى، لم تمض على التحاقى بالكلية إلا شهور معدودة، فوجئت بحشد الشعراء الذين تزدحم بهم الكلية، وهم يتبارون فى صنوف القول واحدا بعد الآخر من فوق منصة (مدرج على مبارك) الشهير. وفى دهشة الانبهار بهم ـ وأنا ما أزال ـ ابن السادسة عشرة الصغير السن والخبرة الإنسانية والشعرية ـ كان بوسعى أن أميز شاعرين كبيرين من طلاب السنة الرابعة يكادان يلخصان واقع الشعر وحاله فى الكلية هما: "عبده بدوى" و"على الصياد".

كان "عبده بدوى" وقتها فى عشرينيات العمر، متأنقا فى لغته الشعرية تأنقه فى زيه ومظهره. وكانت قصيدته فى المولد النبوى تحمل عنوانا لافتا جديدا على الأسماع هو (الفجر الأخضر). وبالرغم من الجدة الشعرية فى اللغة والتعبير بالصورة، إلا أنه كان حريصا على القالب العمودى للقصيدة، بخلاف "على الصياد" الذى كان التأثير الرومانسى لشعراء جماعة أبوللو: "ناجى وعلى محمود طه ومحمود حسن إسماعيل"، قد طغى عليه من حيث المعجم الشعرى، واللغة التصويرية، وقالب الرباعيات الذى صب فيه قصيدته .

وفى رحلة الحياة الطويلة، على مدار أكثر من نصف قرن، لمع نجم "عبده

بدوى"، بدءا بنشر شعره فى جريدة المصرى، وتعرفه على الملحن "أحمد عبد القادر" الذى لحن له عددا من قصائده تغنت بها "نجاة وفايدة كامل وكارم محمود ومديحة عبد الحليم"، وعلاقته القوية "بفتحى رضوان" وزير الإرشاد القومى ـ عن طريق تدريسه لابنه فى مدرسة النقراشى النموذجية، وتكليفه بعد ذلك بالإشراف على مجلة نهضة إفريقيا ثم مجلة الرسالة ومجلة الشعر، وكتاباته فى (مجلة الثقافة) ثم حصوله على الدكتوراه عن (الشعر الحديث فى السودان)، وقيامه بالتدريس فى جامعتى: أم درمان والخرطوم، فالتحاقه بقسم اللغة العربية فى كلية الآداب بجامعة عين شمس، حيث أصدر كتبه الأدبية والنقدية: فى الشعر والشعراء، "أبو تمام" وقضية التجديد، "على أحمد باكثير" شاعرا غنائيا، دراسات فى النص الشعرى: العصر العباسى وغيرها. ثم نجاحه فى إقناع "يوسف السباعى" ـ وزير الثقافة والإعلام معا ـ فى إصدار (مجلة الشعر) ، تابعة (لمجلة الإذاعة والتليفزيون)، ظل يرأس تحريرها منذ عام ١٩٧٦ طيلة أحد عشر عاما حتى بعد إعارته للعمل فى جامعة الكويت لسنوات طويلة، منذ عام ١٩٧٧م حتى عام ١٩٩٨، توثقت علاقته خلالها بالشاعرة العراقية الكبيرة "نازك الملائكة" التى كانت زميلة له فى العمل بجامعة الكويت، فكتب عنها، وعن كتابها النقدى عن "على محمود طه"، وقدم لأعمالها الكاملة التى صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة. وفى فبراير ٢٠٠٠ ـ وفى مناسبة بلوغه السبعين (ولد عام ١٩٢٧) أصدر قسم اللغة العربية فى كلية الآداب بجامعة الكويت كتابا تذكاريا عنه بعنوان: (عبده بدوى شاعرا وناقدا) شارك فيه الدكاترة: " عبد الله المهنا ومصطفى النحاس وفاطمة الراجحى ومختار أبو غالى ولمعى المطيعى" ـ الذى شارك بالكتابة فى مجلة "نهضة إفريقيا" حين أشرف عليها "عبده بدوى" ـ " وسعد دعبيس وحلمى القاعود وصابر عبد الدايم".

وأخيرا، كان رحيل عبده بدوى[1] وهو يعمل أستاذا فى كلية الإعلام والألسن

(١) رحل فى عام ٢٠٠٥.

فى جامعة مصر الدولية، بعد أن قدم شهادته على حصاد العمر ومنجزاته. واكتمل مدار النجم بعد طول اغتراب وتطواف، قائلا: "حاولت جهدى أن أغطى مساحات شاسعة فى الدراسات الأدبية، وقد كرمتنى جامعة الكويت بكتاب تذكارى عن دورى، وقد أخلصت دائما لقضية الشعر: فقد جددت فى ديوانى الأول (شعبى المنتصر) ببناء القصيدة على نسق هرمى، بعدد من التفاعيل، ثم تقل حتى تنتهى بتفعيلة واحدة، كما ركزت على ما يسمى بالقصيد السيمفونى على النمط الأوروبى، وفى الوقت نفسه شغلت بفاعلية الإيقاع، وبالبناء الهارمونى الشامل للنص، مع المحافظة ـ قدر الإمكان ـ على عروض البحر وعروض التفعيلة، وتعاملت مع الأساليب الحديثة كالمونولوج والأسطورة، والرمز والقناع والحوار والتضمين وغيرها".

رحل "عبده بدوى" بعد أن حصل على جائزة الدولة فى الشعر عام ١٩٧٧، وجائزة البحث العلمى لأعضاء هيئة التدريس، والجائزة الأولى عن التأليف الإذاعى فى مهرجان داكار، وجائزة أفضل ديوان شعر من مؤسسة يمانى الثقافية، تاركا رصيدا ضخما من الإبداع الشعرى يتمثل فى دواوينه: شعبى المنتصر، باقة نور، لا مكان للقمر، كلمات غضبى، السيف والوردة، دقات فوق الليل، الحب والموت، الجرح الأخير، هجرة شاعر، محمد: قصيد سيمفونى، الأرض العالية: أوبرا إفريقية، ثم يخضر الشجر، معلنا عن ثلاثة دواوين جديدة قيد الطبع هى: الغربة والاغتراب والشعر، حبيبتى الكويت، ويجىء الختام، ورصيدا ضخما من الإنتاج الأدبى والنقدى يبلغ أربعة وثلاثين كتابا من بينها: الشعراء السود وخصائصهم الشعرية، فى الشعر والشعراء، أبو تمام وقضية التجديد، دراسات فى النص الشعرى، حضارتنا بين العراقة والتصحيح، فى الأدب واللغة، قضايا حول اللغة، شعر إسماعيل صبرى، طه حسين وقضية الشعر، العقاد وقضية الشعر، التقاء العمارة بالشعر، شعراء حول الرسول.

فهل اتسعت حياته بالرغم من امتدادها لما بعد الخامسة والسبعين – لطموحه

الكبير، ودوره الإبداعى والأكاديمى الذى وقف عليه جهده منذ مطالع العمر؟ وهل وجد فى الكثير من معارك الحياة التى خاضها ـ منذ نعومة أظافره فى مصر والسودان والكويت ـ ما يؤازره تطلعه الدائم إلى هدف أبعد، ومجال أرحب، متوحدا كالنجم البعيد، مغتربا وغريبا عمن حوله ومن معه، متلفعا دوما بوحدته وانعزاليتـه، مترفعا فى آن، ومقاربا فى آن! أغلب الظن أن سنواته الطويلة فى الكويت ـ إحدى وعشرين سنة على مرحلتين قبل الغزو العراقى وبعده وانغماسه فى العمل الأكاديمى، قد باعد بينه وبين الوهج الشعرى الذى واكب انطلاقاته الأولى، ولم يضمن له مكانا متميزا فى خريطة الشعر المصرى المعاصر، ولم يجعله قريبا ممن آلت إليهم أمور الإبداع والثقافة فى العقدين الأخيرين من الزمان. لقد كان عليه أن يدفع ثمن الغربة الطويلة، والابتعاد النفسى والمكانى، وهو الذى كان يحلم دوما بأفق أرحب، وسماء لا تنال، هذا الانكسار الروحى الذى جعله يقول:

هذا عصر الإنسان المخطوف اللون
والمشجوج القلب
والنازف طول العمر
والمستدعى من أحلامه
كيما يثقب
برصاص ما بين العينين ودون القلب

كما قـاده إلى أن يدمـغ العصر كـله بـهذه الكلمات، مـحاكيا صـوت "صلاح عبد الصبور" فى قصيدته: (الظل والصليب) منتهيا إلى النتيجة نفسها:

هذا عصر الإنسان الضائع
والأم الباكية الثكلى من هول الحرب
والطفل اللاقم ثديا مقطوع الحلمة

والجندى المقسوم النصفين

والتلميذ اللاهى بالحكمة

والشيخ المفقود العكاز

والميت من قبل الحكم

وبنات لم تعرف أبدا طعم الحب

والصدر المعتصر الثديين

ليوفر نصف رغيف اليوم!

وبرحيله، تنتهى صفحة حياة حافلة، ورحلة إبداع جفف من ينابيعها جهده الأكاديمى الدائب ووعيه النقدى المتكئ على ثقافة عربية راسخة لم يستطع تجاوزها والتحليق بعيدا عنها.

***

obeikandl.com

شاعر يحب فى خريف العمر

الشاعر الذى أتحدث عنه هو "ياسين الأيوبى" الشاعر اللبنانى، الذى صدر له ديوانه الأول، مسافر للحزن والحنين ١٩٧٧، وديوانه الثانى: قصائد للزمن المهاجر ١٩٨٣، وديوانه الثالث، دياجير المرايا ١٩٩٢، وديوانه الرابع: منتهى الأيام ١٩٩٥، بالإضافة إلى كونه أستاذا جامعيا للدراسات الأدبية والنقدية الحديثة والمعاصرة. أما مناسبة الحديث عنه، فصدور ديوانه الخامس: آخر الأوراد ـ عن اتحاد الكتاب اللبنانيين ـ منذ شهور قليلة، وهو يهديه "إلى المرأة العظيمة التى فجرت فى كوامن الحب، وأنا فى خريف العمر"... "إليها قائلة لى ذات لقاء، فى عينيك شىء من بريق أسمر يذكرنى دوما بأنى من ضلعك الدافئ، خلقت أنثى!..." ويبدو أن موضوع (خريف العمر) يستوقفه ويؤرقه، ويجعله فى حالة مواجهة مع نفسه، هل يليق به هذا الحب الذى يجرفه وهو فى هذه السن المتقدمة؟ لذا، فهو يستعين فى استهلال الديوان بكلمات الروائى الكولومبى المعاصر "جابريل جارثيا ماركيز" : "سأثبت للرجال مدى خطئهم حين يفكرون أنهم سيكفون عن الحب عندما يشيخون، دون أن ينتبهوا إلى أنهم يشيخون فعلا عندما يتوقفون عن الحب.

ثم يستشهد "ياسين الأيوبى" الذى يشتعل بالحب وهو فى خريف العمر، بالشاعر الألمانى "جوته" الذى أحب وهو فى الثانية والسبعين فتاة فى التاسعة عشرة، وهى ابنة امرأة كان يحبها من قبل. كما يستشهد بالكاتب الأمريكى الروسى الأصل، "نابكوف" من خلال روايته الشهيرة (لوليتا)، "وبسعيد عقل" الشاعر اللبنانى الكبير فى اعترافاته الأخيرة على شاشة التليفزيون، "وبالجواهرى" شاعر

العراق العظيم فى غزواته العاطفية كلما قصد منتجعات أوروبا الشرقية ورياضها ومتنزهاتها، مستجما فى كنف الجمال الأنثوى الغض.

فإذا سألناه: ولماذا تلتمس العذر فى التمثل بهذا الشاعر أو ذاك، وهذه السيرة وتلك، وكأنك تدافع عن عيب وقعت فيه؟ كان جوابه: ومتى كان الحب يعرف عمرا وحدودا، فيتعاطاه الناس فى مواسم وفصول، ويكفون عنه بعد ذلك؟ ألا يقول "جوته" فى كتابه الخالد البديع (آلام فرتر): "إن كل من له قلب وبصر وذوق، لابد له من الاهتزاز والتأثر أمام مفاتن الجمال والشوق والحنين، لامتلاك هذا الجمال والتواصل معه".

وإن ما اعترانى من تجربة الحب المتأخرة ، كان بمنزلة الإعصار الذى قلب أديم الحياة رأسا على عقب، فسالت دماء جديدة، وتضرجت وجنات، وتدفقت جداول وأنهار فى جداول الذات، وتفتحت الأكمام عن براعم وأزاهير عبق بها الوجود، وانعقدت ثمار الكروم والبساتين، وتعانقت أطيار الفصول بعد طول قبوع، واشتعلت حرائق الشعر الذى تملكنى حياله قنوط شديد، فاندفعت القصائد من عقالها تغنى بواكير الضوء المتفتح فى أروقة الغلس.

لقد وجدتنى بين ليلة وضحاها بعد تقاعدى الوظيفى عاشقا عشرينيا ممزق الأوصال، محرور الفؤاد، شارد اللب، متقد الأمانى، والتصورات العذاب، صريع الرؤى الداكنة، لا يفتأ لسانه يلهج بذكر الحبيبية:

ما كنت أحسب أننى فى أخريات العمر
يغمرنى كرى الأعماق
يغسلنى جوى الأشواق
موصول الرؤى فى سكرة المحموم
ما كنت أحسبنى سأولد

من خزامى الوجد
يجتاح المحيا
آه من اللهب المعتق
تشحب الوجنات فيه
كما اختناق الضوء
يجلو خافقيا.
أيكون مولدى احتراقا للوداعة والسكون
وتوجعا لمراشف الدمع الهتون
ما كنت أحسب يا حبيبة
أن موقدة تؤج من انتحابك
عندما باح الفؤاد وهمت الشفتان
أن تروى اختلاجات الحنايا
انتاب وعيك هاجس المرتاب فى مر المصير
فاهتاجت الرئتان واصطخب الأثير
فجرت دموع العين تحرق وجنتيك
وتعصر المخضوضر الريان من عبق نضير
ذاك انبهارى يا حبيبة
بعد دهر من سبات الزعفران
فقت البراكين
اعتليت قباب هاجرتى
نفضت غبار آخرتى
فشارفت ارتحالا أزرقا

obeikandl.com

لما تطرزه الفيافى

مسرحا للريح، والحور الحسان

فى قصيدته: (وداعا ريحانة النهر) يقول الشاعر اللبنانى "ياسين الأيوبى":

" سطعت فجيأة فى مغرب العمر

حططت على فيافى الهدب كالسحر

وما إن أزهر النوار فى الشرفات

واهتاج الصبا المخبوء فى صدرى

طوتك زعازع الأيام واختارتك

قربانا يطيح بصحوة العصر

وداعا موجة الإيناس والبشر

تناثر وهجك المسكوب من عدن

طقوسا من جميل الشدو والشجن

وأيقظ كل خاطرة تراءت فوق أعمدة الجمال الواكف المزن

هبينى من نداوته رذاذا ينزع البؤس من الفنن

وداعا يا تباريحى ويا سكنى!

ترى هل يكفى هذا الديوان (آخر الأوراد) للتدليل على أن خريف العمر، أو شيخوخة العمر لا تتعارض مع حب جديد عاصف، يجعل من الخريف ربيعا، ومن المتقدم فى السن عشرينيا، ومن البحيرة الساكنة شلالات شعر ونغم؟

لا شىء يحول دون أن تنبت نرجسة على كاهل السبعين أو الثمانين، ولا أن يضوع خفقان فى صدر عابد دهرى زاهد، ولا أن تهب أنسام الربيع علينا، ونحن فى وحشة الخريف، وهذا هو سر الشعر وروح الحياة!

obeikandl.com

"قاسم حداد" الذى أيقظته الساحرة

هذه مجموعة شعرية جديدة للشاعر البحرينى الكبير: "قاسم حداد"، أتيح لها أن تظهر باللغتين: العربية والإنجليزية فى وقت واحد، وبين دفتى كتاب واحد يحمل هذا العنوان اللافت: (أيقظتنى الساحرة). قام بالترجمة إلى الإنجليزية "محمد الخزاعى" وراجعها "كمال أبو ديب"، وصدرت ضمن منشورات كتاب البحرين الثقافية.

و"قاسم حداد"، أبرز الأصوات الشعرية فى البحرين، وأكثرها حضورا وتوهجا، يقف الآن على رفرف شعرى مهدت له إصداراته المتتابعة منذ عام ١٩٧٠ حتى اليوم: البشارة، خروج رأس الحسين من المدن الخائنة، الدم الثانى، قلب الحب، القيامة، شظايا، انتماءات، النهروان، الجواشن (بالاشتراك)، يمشى مخفورا بالوعول، عزلة الملكات، نقد الأمل، أخبار مجنون ليلى (بالاشتراك): لندن/ البحرين، ليس بهذا الشكل ولا بشكل آخر، له حصة فى الولع، المستحيل الأزرق، علاج المسافة ، ورشة الأمل.

ولا يزال "ابن المحرق" عاصمة البحرين القديمة وذاكرتها الحية المحتشدة ـ يغترف من عناصر الواقع وطقوسه الملحمية والأسطورية، ومن فضاء اندماجه فى اللغة والكون والخبرة الشعرية، ما يضيف إلى رصيده من الإنجاز الشعرى، الشديد المراوغة والتكثيف، القادر على بسط خيوطه لمن استطاع اقتحام هذا العالم، المستعصى على المألوف والسطحى والهازل، المانح أسراره لمن يحترق بنار الشعر المقدسة، ويقدم قرابين الولاء للفن الأصفى والأنقى.

وهو فى مجموعته (أيقظتنى الساحرة) يعطى للتركيز والتكثيف فرصة أكبر، من خلال مقطعات قصيرة جدا وشديدة الإحكام، تذكرنا بقالب الإبجراما، الذى تنتهى كل وقفة شعرية فيه بسخرية، أو مفارقة أو لغة لاذعة.. لكن "قاسم حداد" يجاوز المألوف من شعر الإبجراما إلى نبرة تشبه الحلول الصوفى حين يذكرنا بمواقف النفرى ومخاطباته فى مقطعاته البادئة بالكلمة المغوية: (أوقفتنى). لكن الشاعر يظل نفسه ونسيجه ولغته وطرائقه. هو الحريص على ألا يختلط بملامح الآخرين وقسماتهم، المتأبى على التصنيف ضمن دائرة ما من شعراء زمانه، حتى وهو يكتب الشعر الحر حينا، وقصيدة النثر أحيانا، ويجمع بينهما فى حالات نادرة. مثل هذا الشاعر لا أظنه يعنيه ما يقول المشقشقون بالدراسة والنقد والتأويل، سيظل سابقا لهم، ولا يبلغون منه إلا ظله، بينما ينشغل هو بالمزيد من المغامرة والمعراج والتجريب.

يقول "قاسم حداد":

أيقظتنى الساحرة

رسمت لى رمزها

وسقتنى كأسها

كلما أغفو أراها

عند حرفى ساهرة!

ويقول:

أستحلفك يا زرقة النوم

غررى بى

واجعلى الشهوة قنديلا لخطواتى

أججى روحى

وانتصرى بها على جسدى

وخذى بقلبى ناحية العمل
أطلقى البراكين فى دمائى
لئلا أغفل
فأجلس إلى طاولة
ويقعدنى كرسى
وتنال منى راحة الحكمة

ويقول:

أوقفتنى الجنية الزرقاء فى الحنان، وقالت:
سمعتك قبل أن أراك
ورأيتك قبل أن ألقاك
وعشقتك قبل أن أغشاك
وانتهيت بك قبل مبتداك
وسكرت بك قبل نبيذك
وهذا يكفى

ويقول:

أوقفتنى وقالت لى:
ليس الكلام فى الكتب
الكلام فى الناس

قلت فى البداية: إن هذه المجموعة محظوظة لصدورها بالعربية والإنجليزية فى وقت واحد وكتاب واحد، وأيضا لأنها ـ بإشعاعها الشعرى ودلالاتها العميقة ـ قد أتاحت للفنانين: "عبد الجبار الغضبان" و"عباس يوسف" عكوفا على هذا النص، وإبداعا

obeikandl.com

تشكيليا فى لغة الحفر، فأقاما معرضا خاصا فى مناسبة اليوم العالمى للشعر ـ مارس ٢٠٠٤ ـ بمركز البحرين للفنون يحمل عنوان الكتاب. وقد زينت مختارات من أعمالهما التشكيلية الصفحات، وأتيح للمعرض حضور ساطع من خلال اللوحات الداخلية، فاغتنت المجموعة ـ أو النص كما يسميه "قاسم حداد" ـ بالرؤى الإبداعية شعرا وتشكيلا، وفتحت طاقات من الإشراق الروحى، توحى ولا تنطق، وتشير ولا تتجسد..

يقول قاسم حداد

تفتح لى دفاتر الروح وتقرأ:
أعلنت فى الكائنات
وأوصيت بك الحب
لا أنت من الأنبياء
ولا يطالك الخلق
وليس للتأويل باب إليك
مكانتك فى مكانك
وأرضك فى رضوانك
وسلامك فى نسيانك
وسماؤك فى سلوانك
ومعناك فى عنوانك
فلا تصدق ما يقال
لئلا تجهل

ولأن "قاسم حداد" لا يملك سلطانا أو نفوذا، ولا يقيم مهرجانات أو احتفالات، أو يوجه دعوات ويطبع مؤلفات، فلن يلتفت إليه كثيرا سماسرة هذه الأيام، والمروجون طمعا أو شكرا، وسيبقى حيث هو فى مكانه، يسمع به غير المنتفعين، ويسارعون إليه ليعرفوه أكثر.

obeikandl.com

بين والد وولده

(١)

لا أظن أن عالم الدراسات الشرقية الدكتور "حسين مجيب المصري،[1]" فى حاجة إلى تعريف أو تقديم، فهو أستاذ أساتذة اللغات الشرقية فى الجامعة المصرية. يكفى أن يقال عنه: إنه أول عربى يحمل الدكتوراه فى الأدب التركى عند حصوله عليها عام ١٩٥٥ وأول من درس الأدب الإسلامى المقارن ـ بعد أن سبقه الدكتور "محمد غنيمى هلال" بقليل إلى تدريس الأدب المقارن منذ العام الجامعى ١٩٥٢ـ ١٩٥٣ فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة. كما يذكر للدكتور "حسين مجيب المصري" قيامه بترجمة جميع أشعار "محمد إقبال" ـ عن الفارسية والأردية ـ إلى الشعر العربى الموزون المقفى (بحسب تعبيره)، فضلا عما تطلبته هذه الأشعار من شروح وتعليقات. ثم هو الأستاذ الجامعى الوحيد الذى يجيد ثمانى لغات هي: العربية والتركية والفارسية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والروسية، وله عدة دواوين شعرية منظومة باللغات العربية والفارسية والتركية والفرنسية، وقد تخرج على يديه كثير ممن يعملون فى مجالات اللغات الشرقية، فى أربع وعشرين جامعة فى أمريكا الشمالية والجنوبية وإنجلترا والمجر والأردن والسعودية وإيران والكويت والعراق ومصر ودول شمال أفريقيا. كما كان إنتاجه العلمى الغزير موضوعا للعديد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وتم تكريمه ومنحه الكثير من الأوسمة

(١) رحل فى عام ٢٠٠٥

وشهادات الدكتوراه الفخرية، والميداليات التكريمية فى باكستان وتركيا وإسبانيا، واهتمت بسيرته الذاتية دائرة المعارف التركية، ودائرة المعارف الأردية.

أما مؤلفات الدكتور "حسين مجيب المصري" فهى بالعشرات، من بينها كتبه: فارسيات وتركيات، من أدب الفرس والترك، تاريخ الأدب التركي، فى الأدب العربى والتركي، فى الأدب الإسلامي: "فضولي" أمير الشعر التركى القديم (وهو رسالته للدكتوراه)، سلمان الفارسى عند العرب والفرس والترك، إقبال والعالم العربي، إقبال والقرآن، فى الأدب الشعبى الإسلامى المقارن، المعجم الفارسى العربى الجامع، أثر الفرس فى حضارة الإسلام، معجم الدولة العثمانية، المرأة فى الشعر العربى والفارسى والتركي، الأسطورة بين الأدب العربى والفارسى والتركي، الأندلس بين شوقى وإقبال، أيامى بين عهدين (سيرة ذاتية)، كربلاء بين شعراء الشعوب الإسلامية، الرحلة إلى مصر للرحالة التركى القديم "أوليا شلبي". ومن دواوينه الشعرية: شمعة وفراشة، وردة وبلبل، حسن وعشق، همسة ونسمة، موجة وصخرة. ومن أشهر مترجماته: فى السماء (ترجمة لكتاب جاويد نامه لمحمد إقبال) وهدية الحجاز (ترجمة لكتاب أرمغان حجاز لمحمد إقبال)، وروضة الأسرار (ترجمة لكتاب كولشن راز جديد لمحمد إقبال)، والمولد الشريف (ترجمة منظومة المولد الشريف عن التركية لسليمان جلبي)، وما وراء الطبيعة فى إيران لمحمد إقبال، والمنتخب من ديوان شاعر قازاقستان الأعظم: آباي، والمنظومة الإسلامية فى مدح خير البرية (ترجمها عن الأردية لأحمد رضا القادرى بالاشتراك مع الدكتور حازم محفوظ).

ويعتز الدكتور "حسين مجيب المصري" كثيرا بمراجعاته لعدد من الأعمال المهمة، من بينها: مراجعة الترجمات الفرنسية والألمانية والروسية والإيطالية لمعانى القرآن ـ بتكليف من إدارة البحوث بالأزهر، ومراجعة ترجمة كتاب: الوحدة والمجتمع (عن الإنجليزية) وترجمة رحلة العذاب لناظم حكمت (عن الفرنسية).

لهذا كله، كان طبيعيا أن تركز رسائل الماجستير والدكتوراه، التى أنجزت عنه

وعن آثاره العلمية، على قيمته الكبيرة عالما وشاعرا وناقدا، وعن الاتجاه الإسلامى فى أدبه: شعرا ونثرا ودراسات أدبية وحضارية.

فما مناسبة الحديث الآن عن هذا الرجل العصامي، الذى أقام هرما من الإنجاز الأكاديمى والإبداعي، على مدار حياته الحافلة؟ (ولد عام ١٩١٦ وتخرج فى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٩)، وكان هذا الجهد المتواصل الذى يفوق طاقة البشر، سببا فى فقدانه لبصره، واعتلال صحته، لكنه لم يفقد بصيرته الفذة وعقله اليقظ وإرادته الصلبة، وإصراره العنيد وحماسه الدائم للعلم الذى وقف عليه حياته، والإبداع الذى شفى به غلة وجدانه قبل أن يروى ظمأ تلاميذه ومريديه.

المناسبة التى تدعونى للكتابة عنه، وتذكير أبناء هذا العصر به ـ العصر الذى يتنكر حتى لنفسه، وأجمل ما فيه من عقول مشعة بالوعى والمعرفة، وقلوب متفجرة بالعطاء والمشاركة ـ هي: صدور كتابه الجديد: (بين والد وولده) فى الشعر العربى والفارسى والتركى والأردي، عن الدار الثقافية للنشر. ربما يكون كتابه الستين فى سلسلة إصداراته، لكنه بالقطع من أكثرها شفافية وإنسانية ورقة ورحمة، وهو يهديه إلى: "من أيقن أن ولده فلذة كبده، فهو بعض من روحه وجسده، فكان من حقه عليه التربيب، وكذا التخطئة والتصويب، وأخذ بيده من عثراته فى صغره، وهداه السبيل فى كبره". وهو إهداء يكشف عن ملمح جميل فى شخصية "حسين مجيب المصري"، هو ملمح الأبوة الحانية، التى ترعى وتؤدب وتهذب، فى رفق ومودة، كما يكشف عن صدر مـمتلئ بفيض من الرضا والسماحة، لم تنجح مرارات الحياة ـ حياته ـ وهى كثيرة، وإحباطاتها المستمرة، وشعوره بالغبن وانعدام العدل، وفقدان التقدير السليم فى بلده الذى لم يدرجه مرة واحدة فى مسلسل جوائزه ـ التى نالها تلاميذ "حسين مجيب المصري" وتلاميذ تلاميذه.

أقول: لم تنجح هذه المرارات فى تشويه صفاء هذا الصدر الحانى النبيل أو تكديره، وظل على حاله وطبيعته، يعطى ولا ينتظر جزاء ما أعطى، ويهب ولا يتوقع

جـزاء ولا شكـورا، ويتأمـل اختلال المعايير من حوله، لكنه لا يشكو ولا ييأس ولا يتبرم. بل ربما كان هذا من دوافعه القوية إلى الاستمرار ومتابعة الرسالة، التى نذر لها حياته منذ بواكير العمر، وصولا إلى الثامنة والثمانين.

نعود إلى أحدث كتب "حسين مجيب المصري"، الذى يقوم من خلاله بدراسة مقارنة لانعكاس العلاقة بين الآباء والأبناء فى شعر أربع لغات: العربية والفارسية والتركية والأردية. متتبعا أجمل النماذج وأحقها بالتأمل والتحليل والدراسة فى الشعر العربى القديم، ثم الحديث، وفى الشعر التركى القديم، ثم الحديث، ثم الشعر التركى الشعبي، وفى الشعر الفارسى القديم، ثم الحديث، وأخيرا فى الشعر الأردى القديم، ثم الحديث. موضحا أنه يقصد بهذه الدراسة إلى التعرف على جانب له مكانته فى التراث الإسلامي، وأن هذا الفن من الشعر يقتضى أن نتفهمه ونتدبره؛ لأنه فن يتضمن فنونا عدة فى وقت معا، وأن النظر فيه لابد أن يخوض بنا فى تقاليد وأعراف عدة شعوب إسلامية، وعلى امتداد عصور تعاقبت. وهو بهذا يواصل حمل أمانة الأدب الإسلامى المقارن ـ التى حملها على مدى أكثر من خمسين عاما ـ ما تأتى له أن يجد فى التراث الإسلامى مادة تصلح للمقارنات والموازنات.

توقعت أن يبدأ الدكتور "حسين مجيب المصري"، رحلته مع النصوص والنماذج التى استوقفته، بأبيات "حطان بن المعلى"، التى تعد جوهرة إبداعية نفيسة مبكرة فى هذا السياق، وهى التى يقول فيها:

أنزلني الدهر على حكمه
من شامخ عال إلى خفض
وغالني الدهر بوفر الغنى
فليس لي مال سوى عرضي
لولا بنيات كزغب القطا

رددن من بعض إلى بعض

لكان لي مضطرب واسع

في الأرض ذات الطول والعرض

وإنما أولادنا بيننا

أكبادنا تمشي على الأرض

لو هبت الريح على بعضهم

لامتنعت عيني عن الغمض!

لكنه تجاوزها ولم يشر إليها، وعندما سألته فى هذا، كانت إجابته الهادئة ـ هدوء تواضعه العلمي، وثقته بمعرفته ـ أنها تتناول عاطفة الأبوة بشكل عام، لكنها لا تصور العلاقة بين الطرفين: الآباء والأبناء، بما تتضمنه من رضا أو غضب، ومن بر أو عقوق، ومن وصل أو قطيعة، وملازمة أو فراق، وهى الأمور التى تعنيه فى دراسته بشكل خاص.

لقد آثر، أن يبدأ الرحلة مع قصيدة أخرى فاتنة، تحمل عتابا مريرا من أب أسرف فى رعاية ابنه وتدليله، مولودا ويافعا، فلما جاء الوقت الذى يرد فيه الابن رعاية برعاية وصونا بصون، وجد الأب جزاءه غلظة وفظاظة وعقوقا ونكرانا، وليت هذا الابن الذى لم يرع حق الأبوة فعل ما يفعله الجار المجاور، الذى ليس من جملة الأهل، لكنه يحنو على جاره ويصونه ويرعاه:

غذوتك مولودا وعلتك يافعا

تعل بما أجني إليك وتنهل

إذا ليلة آبتك بالشكو لم أبت

لشكواك إلا خائفا أتململ

كأني أنا المطروق دونك بالذي

طرقت به دوني، وعيني تهمل

تخاف الردى نفسي عليك، وإنها

لتعلم أن الموت حين مؤجل

فلما بلغت السن والغاية التي

إليها مدى ما كنت فيك أؤمل

جعلت جزائى غلظة وفظاظة

كأنك أنت المنعم المتطول

فليتك إذ لم ترع حق أبوتى

فعلت كما الجار المجاور يفعل!

ويعلق الدكتور "حسين مجيب المصري" على هذا النص الذى اجتزأنا منه أبياتا قليلة بقوله: " إنه يوقفنا أمام طرفين متقابلين هما: ولد يعق أباه ويذكر عنه ما يكره فيه، وأب يرد عليه موضحا ما تسبب له من عقوق. ثم يغلب عليه حنو الأب على ولده، فيذكره بما كان فى ماضى الأيام من بره وحب له، ولكن فى نبرة لينة لا يكاد يعبر فيها عما به من غضب عليه، فكانت رقته أمام غلظة ولده، هذا هو الفرق الوسيع بين فطرة الابن وفطرة الأب، وهو أمر يذكرنا بمثل تردد على ألسنة الناس وهم يفرقون بين قلبين أحدهما مفطور على الرقة لا يملك أن يغير من فطرته، فهو لابد منفطر لما يلحقه من ضيق وألم وحزن فيكاد ينفطر، وقلب آخر هو قلب الابن يجعله المثل شبيها فى صلابته وقسوته بالحجر الأصم".

بين والد وولده

(٢)

مازلنا مع عالم الدراسات الشرقية، وأستاذ أساتذة اللغات الشرقية فى جامعاتنا المصرية الدكتور "حسين مجيب المصري"، من خلال كتابه الجديد البديع (بين والد وولده) فى الشعر العربى والفارسى والتركى والأردي. نتأمل اختياره عددا من النصوص الشعرية المتوهجة بالمشاعر الإنسانية، والتى تناولت العلاقة بين الآباء والأبناء: وفاء وعقوقا، ووصلا وقطيعة، وقربا وبعدا ـ فى هذه الآداب الأربعة التى عنى بدراستها ـ فى إطار اهتمامه القديم، منذ أكثر من خمسين عاما، بالأدب الإسلامى المقارن. فى تناوله لبعض المواقف الدالة من التراث العربي، تستوقف المؤلف نصيحة "للهيثم بن صالح" يتجه بها إلى ابنه قائلا له: إذا أقللت من كلامك أكثرت من الصواب. فيرد عليه ولده قائلا: إذا أكثرت أكثرت. أى إذا أكثرت من الكلام أكثرت من الصواب.

فقال الأب: يا بنى، ما رأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك.

ثم أنشد بيتين " لأبى الفتح البستي" هما:

تكلم وسدد ما استطعت، فإنما

كلامك حي، والسكوت جماد

فإن لم تجد قولا سديدا تقوله

فصمتك — عن غير السداد — سداد

كما يورد بيتين جميلين " لأعشى سليم" ـ وكان معاصرا "لبشار بن برد" ـ كما كان محبا لولد له يبره، غاب عنه وطالت غيبته، فاشتاق وعبر له بأنه محزون لفرقته قائلا:

ونفسي فداؤك من غائب

إذا ما البيوت لبسن جديدا

كفيت الذي كنت ترجو له

فصرت أبا لي وصرت الوليدا

ويعلق المؤلف على كتاب (العققة والبررة) وعققة جمع عاق، والكتاب ألفه "أبوعبيدة"، لكنه لم يذكر إلا قليلا من البررة، أما العققة فهم كثير، وكأنما قال فى نفسه: قليل يكفي، والمثل الفارسى يقول: لا ربيع من زهرة واحدة

ثم يورد ما جاء فى "خزانة الأدب" "لعبد القادر البغدادي" وهى أبيات للصلتان العبدى " يقول فيها:

ألم تر لقمان أوصى بنيه

وأوصيت عمرا، فنعم الوصى

بني بدا خب نجوى الرجال

فكن عند سرك خب النجى

وسرك ما كان عند امرئ

وسر الثلاثة غير الخفى

ويذكر أن الدعوة إلى كتمان السر وصية متعارفة معلومة فى كتب الأدب العربى والفارسى والتركى والأردي، تجرى على ألسنة العوام، وتضرب فيها الأمثال. يقول الشاعر العربي:

احذر عدوك مرة .. واحذر صديقك ألف مرة

فلربمـا انقلب الصديق فكان أعلم بالـمضرة

ثم يشير إلى العربية الدارجة التى يتردد فيها هذا القول: (دارى على شمعتك تنور). فكأن من يكتم السر يخشى على شمعته من الريح، وهذه الريح قد تأتى فى الأعم الأغلب من عدو، وإن لم يوجد ما يمنع إتيانها من صديق، ولو بسلامة نية وبراءة غير مقصودة، وفى مثل فارسي: إن السر إذا خرج من بين شفتين فشا وذاع، والمراد بهاتين الشفتين الشخص الذى لا يرعى للسر حرمة، "والمتنبي" يقول:

وللسر عندي موضع لا يناله

صديق، ولا يفضي إليه شراب

وفى كتاب: الأمثال للميداني، (سرك من دمك)، أى ربما كان فى إضاعة سرك إراقة دمك، فكأنه قيل: سرك جزء من دمك. ثم يحملنا المؤلف إلى الأدب الشعبى التركى فنجد مضحكات لمن يسمى "نصر الدين خوجة" وهو نظير "جحا" العربي، حكيم يسوق الحكمة والموعظة الحسنة مساق الدعابة. فمن مضحكاته: أنه شاء يوما أن يختبر قدرة زوجته على كتمان السر، فأوهمها أنه قتل رجلا ودفنه فى فناء الدار. وواقع الأمر أنه إنما ذبح كبشا ودفنه، ثم أكد عليها الوصية أن تحجب هذا السر عن كائن من كان، وإلا جاء جماعة من ذوى قربى القتيل ليقتصوا منه. ثم اتفق أن مر بالدار بعض من ذوى قربى الرجل، ولم تكد تراهم المرأة حتى كانت أسرع إلى قولها: تعالوا، لقد قتل زوجى رجلا ودفنه فى فناء الدار. فجاء الرجال ونبشوا القبر فوجدوا كبشا حنيذا (أنضجه الدفن فى الحجارة المحماة بالنار) فأغربوا فى الضحك وعرفوا أن هذا من مضحكات " نصر الدين خوجة" ودعاهم نصر الدين على الطعام فطعموا!!

ويستهل الدكتور "حسين مجيب المصري" الفصل الثانى من كتابه وهو ينتقل إلى

الشعر العربى الحديث، بقصيدة له اختتم بها ديوانه، (حسن وعشق). وهى قصيدة كاشفة عن وجدان مفعم بالأبوة بل هى مرآة تجلو ذات نفس صاحبها، الذى آثر بعد كتابتها أن يتتبع هذا الخيط من الإبداع الشعرى فى أشعار الآداب الأربعة، دارسا ومحللا ومقارنا. يقول فى قصيدته عن ولده:

رعاك الله يا ولدي وعشت لنا إلى الأبد
فدتك بنورها عيني فدتك بمهجتي كبدى
أعز علي من نفسي وليس سواك ذخر غدي
وبدري أنت أو شمسى بغيم جد ملتبد
عزائي إن رمى زمنى بلاياه، بلا عدد
وآمالي إذا محنى فتتن اليوم في عضدى
إليك أوجه الشكوى وما أشكو إلى أحد
وأنت تخفف البلوى وتشفي لوعة الكمد!

ويختتم قصيدته بقوله:

ستبقي أنت لي ذكرى
إذا ضم الثرى جسدى
وتقرأ لوعتي شعرا
وهذا منتهى أمدى
دعاء قلته حقا
لربي الواحد الصمد

ولن تأسي، ولن تشقى

كمثل أبيك يا ولدي!

المؤلف الشاعر أو الشاعر المؤلف يختم القصيدة بمثل ما استهلها، وهو الدعاء لولده بالخير، وأمله ـ كما يقول فى تعليقه على قصيدته ـ أن يحيا ولده من بعده حياة طيبة، هى أبعد ما يكون شبها بتلك الحياة التعسة التى عاشها هو. لقد تحدث فى قصيدته عن نفسه من فاتحتها إلى خاتمتها، ولم يذكر عن ولده إلا أقل القليل، وما ذلك إلا لأنه شاء أن يجعل من ولده صنوا لنفسه بكل ما تنطوى عليه الكلمة من معنى. وهو يصف نفسه بأنه شاعر غنائي، بمعنى الغنائية فى جوهرها، يرى نفسه فى كل شىء يراه بأم عينيه، أو يرد على فكره أو يتجلى فى خياله، وتلك صفة الشاعر الحق الذى يطلعنا على النفس الإنسانية فى حركاتها: منبسطة بالفرح أو منقبضة بالترح، وخياله هو الحقائق بعينها، فهو يفسر الحقيقة بالمجاز والخيال ولكن بمقدار.

ثم ينتقل الدكتور "حسين مجيب المصري" إلى ديوانين للشاعر المبدع "محمد إبراهيم أبو سنة" هما: (مرايا النهار البعيد) و(شجر الكلام) وتستوقفه قصيدتان أبدعهما الشاعر فى ابنته "مي" فى مرحلتين من مراحل العمر. يقول فى إهداء ديوانه الأول: إلى ابنتى مى مرآة النهار القادم، لعلها أن تقطف من أغصان الأيام ثمرا أقل مرارة وفى قصيدته: (عصفور النور والبراءة) يقول: (إلى ابنتى "مي" وهى تنطق أولى الكلمات)، ثم يقول:

ماما، ماما

يهمس برعم حلم فى شفتى "مي"

يتفتح فى قلبى كون من أجنحة

ينهمر ورودا وغماما

"ماما" "ماما" "ماما"

تبتكر طريقتها فى خلق اللغة الموسيقى

فى خلق مدار للأفلاك

غروبا وشروقا
يبصر حين يراها القلب الأعمى
يشتعل غراما
"ماما" "ماما" "ماما"
تتنزل فوق فؤادى بردا وسلاما
وكأن لم أسمع من قبل كلاما
تملأ روحى أفراح الحب الأول
ويبادلنى العالم
حبا وهياما
"ماما" "ماما" "ماما"
من أجلك سامحت الأياما
من أجلك أعفو عن أحزاني
وأبارك فرحي
أتجلد للدنيا
صلحا وخصاما

ويعلق "حسين مجيب المصري" بأن فى القصيدة ما يذكرنا بما ألفه شعراء الفارسية والتركية والأردية من تشبيه الثغر بالبرعم، وفيها ما يكشف عن خياله الذى ينطلق فيه قلبه؛ فيرى دنياه وقد خفقت فيها أجنحة، وانهمرت وردا فهى ـ عندما تتكلم ـ كل دنياه، وهى دنيا كل ما فيها جميل، وخياله الخصب يعرض صورا يؤلفها الشاعر من عناصر ومقومات، يرى فيها لحنا عجبا كأنما تخلقه على غير مثال.

وتختتم هذه السطور بما تخيره المؤلف من شعر الشاعر العراقى "عبد الوهاب البياتي" فى ابنه "علي"، فى قصيدتين من قصائد ديوانه (سفر الفقر والثورة) يقول فى أولاهما:

قمرى الحزين
البحر مات وغيبت أمواجه السوداء

قلع السندباد
ولم يعد أبناؤه يتصايحون مع
النوارس والصدى
المأجوج عاد
والأفق كفنه الرماد
فلمن تغنى الساحرات؟
والبحر مات

ويقول فى الثانية:

مدن بلا فجر تنام
ناديت باسمك فى شوارعها
فجاوبنى الظلام
وسألت عنك الريح وهى تئن
فى قلب السكون
ورأيت وجهك فى المرايا والعيون
ومن زجاج نوافذ الفجر البعيد
وفى بطاقات البريد

تمنيت لو اتسعت المساحة المتاحة لعرض كل فصول هذا الكتاب البديع، خاصة ما يتناول منها مختارات الشعر الفارسى والتركى والأردو. لكن، تكفى الإشارة إلى عمل يحمل سمت صاحبه وسماته: عالما وأكاديميا وناقدا وشاعرا، والتقدير لأستاذ لم يقم المجتمع الثقافى نحوه بما يستحقه من رعاية وتكريم، بعد أن أفنى نور عينيه بحثا ودراسة، ولم يفقد بصيرته الهادية وحماسه؛ لمواصلة الرسالة التى عاش لها، مكتفيا بها عن كل شىء من متاع الدنيا.

"ابن زيدون.. يعود إلى قرطبة"

(١)

الفضل فى عودة شاعر الأندلس الأشهر إلى عاصمة الأندلس: "قرطبة" لمؤسسة البابطين التى ارتأت أن تسمى دورتها التاسعة (دورة ابن زيدون) وأن تقيمها فى "قرطبة" حيث عاش، وتألقت شاعريته ومكانته قبل أن يضطر للخروج منها إلى "إشبيلية" التى كانت حاضرة الأندلس قبل" قرطبة"، ثم عاد إليها عند ازدهارها فى عصر بنى عباد. وقصد بهذه الدورة: أن تكون فى الذكرى الألفية لميلاد "ابن زيدون" (٣٩٤ ـ ٤٦٣ هـ/ ١٠٠٣ ـ ١٠٧٠) وأن تقام ـ بمناسبتها ـ ندوة عالمية بعنوان (الحضارة العربية الإسلامية والغرب: من الخلاف إلى الشراكة). وتمت إقامة الدورة بين الرابع والثامن من أكتوبر ٢٠٠٤ بالمشاركة مع جامعة قرطبة التى كانت قاعة المؤتمرات فيها مقرا لهذا الملتقى الكبير، بكل ما تضمنه من: جلسة افتتاحية، وجلسات بحثية وحوارية وأمسيات شعرية، واحتفالات فنية مصاحبة تعرض ألوانا من الفن الشعبى الكويتي.

فى مطار "إشبيلية" هبطت الطائرة المقلة للوفود العربية القادمة من أقطار عربية شتى. كان الليل يوشك أن ينتصف، وشميم الأندلس وعطره يملأ الأجواء من حولنا، وعلى الأرض التى شهدت ملك "المعتضد" وابنه "المعتمد بن عباد" الذى كان بأفعاله وسوء تدبيره مسئولا عن سقوط الأندلس، وضياع الحكم العربى فيها،

عندما ارتكب خطأه الجسيم واستعان "بألفونسو السادس" أمير قشتالة ضد خصومه ومنافسيه من بنى ذى النون أمراء طليطلة. الأمر الذى شجع "ألفونسو" على التهام بقية الإمارات الأندلسية ومن بينها "إشبيلية" نفسها. على هذه الأرض كانت خطواتنا الأولى قبل أن تنطلق بنا الحافلات إلى قرطبة. هذه هى الأندلس التى تتاح لى زيارتها وملامستها العميقة للمرة الرابعة. فى المرة الأولى كنت مدعوا من الأستاذ الدكتور "أحمد هيكل" مدير المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد، والمستشار الثقافى لمصر فى ذلك الوقت، ووزير الثقافة بعد ذلك ـ لحضور المؤتمر الإسلامى المسيحى الثانى فى قرطبة (مارس ١٩٧٧) الذى شهدته وفود إسلامية ومسيحية عديدة وشخصيات من العالمين: العربى والأوروبي، من بينهم الأسقف "ترانكون" أسقف قرطبة الذى دعا إلى ضرورة أن يحذف من كتب الدين والتاريخ فى إسبانيا كل ما يسىء إلى الإسلام ونبى الإسلام، وسمح لنا ـ فى إطار جو التسامح والمودة الذى ساد المؤتمر ـ أن نصلى الجمعة فى الكاتدرائية الكبرى التى كانت جامع قرطبة الكبير ـ فى العصر الأندلسى ـ وما زلت أذكر كيف كان يؤمنا المرحوم الدكتور "عبد العزيز كامل" للصلاة، وكيف كان يلقى خطبة الجمعة والعيون تتفجر منها دموع ساخنة، ونحن فى مجال العظة والاعتبار والتأسي.

فى الطريق إلى قرطبة و"ابن زيدون" ينشر ظله علينا، وأطيافه تجوس من حولنا فى الأماكن التى عشقها وجاس خلالها والتقى فيها بمعشوقته "ولادة بنت المستكفي"، وأبدع روائعه فى حبه وفى أزمة مصيره الإنسانى سجينا ومطاردا، وجدتنى أغمغم بكلمات "شوقي" التى قدم بها لسينيته التى عارض بها سينية "البحتري" وسماها (الرحلة إلى الأندلس) بعد أن سمح له ـ وهو المنفى فى إسبانيا طوال سنوات الحرب العالمية الأولى ـ بالرحلة إلى الأندلس فى ختام إقامته، وعودته إلى مصر. كان " شوقي" يعبر عن فرحه الغامر بقرب تنسمه للحرية، وسعادته بالسماح له برؤية الأندلس، ويقول: "فبلغت النفس بمرآة الأرب، واكتحلت العين

فى ثراه بآثار العرب، وإنها لشتى المواقع، متفرقة المطالع، فى ذلك الفلك الجامع، يسرى زائرها من حرم إلى حرم، كمن يمسى بالكرنك ويصبح بالهرم، فلا تقارب غير العتق والكرم. "طليطلة" تطل على جسرها البالي، و"إشبيلية" تشبل على قصرها الخالي، و"قرطبة" منتبذة ناحية بالبيعة الغراء، و"غرناطة" بعيدة مزار الحمراء. وكان "البحتري" ـ رحمه الله ـ رفيقى فى هذا الترحال، وسميرى فى الرحال، والأحوال تصلح على الرجال، كل رجل لحال فإنه أبلغ من جلى الأثر، وحيا الحجر، ونشر الخبر وحشر العبر، ومن قام فى مأتم على الدول الكبر، والملوك البهاليل الغرر"

كان حفل الافتتاح ـ فى القاعة الرئيسية بجامعة قرطبة ـ حاشدا ومهيبا، تحت رعاية الأميرة الإسبانية نائبة عن أبيها الملك "خوان كارلوس" ملك إسبانيا، ومشاركة وزيرة الثقافة "كارمن كالفو" ممثلة لرئيس الحكومة الإسبانية، وعمدة مدينة قرطبة "روصا أغيلار ريبيرو"، ورئيس جامعة قرطبة "أو خينيو دو مينغيث"، فضلا عن رئيس المؤسسة الشاعر "عبد العزيز سعود البابطين". وتم تكريم الفائزين فى هذه الدورة: الشاعر السودانى "محيى الدين فارس" الذى حصل على الجائزة التكريمية، والناقد الدكتور "أحمد درويش": جائزة الإبداع فى مجال نقد الشعر، والشاعر "رابح لطفى جمعة" (مصر): جائزة أفضل ديوان، أما جائزة أفضل قصيدة فهى مناصفة بين الشاعرين:" عبد الرحمن بو علي" (المغرب) و"سيد يوسف أحمد" (مصر). وألقى كلمة الفائزين الدكتور "أحمد درويش". وقد سعدت بصحبة هؤلاء فى حين غاب الشاعر "رابح لطفى جمعة" الذى رحل عن عالمنا بعد تقدمه للجائزة، وقبل إعلان نتيجتها.

الوجوه الإسبانية المشاركة فى الملتقي، والحريصة على الحضور فى جلسات الصباح والمساء، تتوهج بالحفاوة وحرارة الاندماج، بعضهم من طلاب الجامعة، وآخرون مسئولون من الإسبان وأساتذة ومستعربون ومستشرقون، وإحساس

غامر ـ فجرته الحوارات والمناقشات ـ بأن هذا الحوار التاريخى هو ضرورة ومناخ ومسئولية، وأن اختيار المكان "قرطبة" له دلالة ترمز إليه حضاريا باحتضانها نموذجا رائعا للوحدة، فى ظل احترام التعددية، وتحقيق تعايش دينى واجتماعى بين مختلف الطوائف والأديان والأعراق، فى فترة من أزهى فترات التاريخ العربى والإسلامى على مدى قرون طويلة.

وطوال أيام هذا الملتقى ولياليه، التى مرت وكأنها حلم بديع، كانت أشعار "ابن زيدون" ترفرف من حولنا، وتعطر المكان بأقباس هذه الشاعرية الفذة، وحرارة عواطفها المشبوبة، وهو يقول فى (ليالى قرطبة):

سقى الغيث أطلال الأحبة بالحمى
وحال عليها ثوب وشىء منمنما
وأطلع فيها للأزاهير أنجما
فكم رفلت فيها الخرائد كالدمى
إذ العيش غض والزمان غلام
فكم لي فيها من مساء وإصباح
بكل غزال مشرق الوجه وضاح
يقدم أفواه الكؤوس بتفاح
إذا طلعت في راحة أنجم الراح
فإنا لإعظام المدام قيام

وصولا إلى قوله:

فقل لزمان قد تولى نعيمه

ورثت - على مر الليالي - رسومه

وكم رق فيه بالعشي نسيمه

ولا حت لساري الليل فيه نجومه:

عليه من الحب المشوق سلام

لقد استيقظ "ابن زيدون" ـ بفضل هذا الملتقى ـ من رقدته، وأحذ يطوف بنا شوارع قرطبة وأحياءها وضواحيها، ويتوقف بنا عند "الزهراء"، الضاحية التى شهدت قصته مع "ولادة" ويتوقف فى كل منعطف ومنحنى؛ ليحكى ويشير وينشد. لا يكاد يتركنا لحظة، حتى تلفحنا أنفاس شعره من جديد.

***

obeikandl.com

"ابن زيدون.. يعود إلى قرطبة"

(٢)

لا يذكر "ابن زيدون" ـ شاعر الأندلس الأشهر ـ إلا وتذكر معه "ولادة بنت المستكفي": أميرة وشاعرة ومعشوقة. هذا الاقتران العمدى السارى عبر العصور فى نظرتنا إلى "ابن زيدون" يختصر شعره فى دائرة واحدة هى "دائرة الحب والحنين والعشق والاغتراب. ثم يتم اختصار العشق والغربة ـ كما أوضح الناقد الدكتور "محمد حسن عبد الله" فى دراسته إلى مؤتمر ابن زيدون حول استلهامات المبدعين العرب لسيرة ابن زيدون وشعره ـ يتم الاختصار فى قصيدة واحدة هى (أضحى التنائي) التى يقول عنها ديوان ابن زيدون: "إن كثيرين من الشعراء شغفوا بمعارضتها وتخميسها وتسديسها، ولكنها سامقة فى مكانها الرفيع" من بينهم "أحمد شوقى وإسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وعبد الرحمن صدقى وعلى الجارم وعلى عبد العظيم ومصطفى صادق الرافعي" (من المصريين). أما من الشعراء العرب فهناك "حنا الأسعد وسليم الزعنون وشفيق جبرى وصفى الدين الحلى والأمير الصنعانى وفؤاد الخطيب ومحمد الأخضر السائحى ومحمد بهجة الأثرى ومحمد مهدى الجواهرى ومصطفى وهبى التل"عرار" ... وغيرهم.

وقد أحسنت (مؤسسة البابطين) حين ضمنت مطبوعاتها عن دور ابن زيدون كتابا للدكتور "عدنان محمد غزال" بعنوان: (معارضات قصائد ابن زيدون) لا يتوقف فقط عند معارضات (أضحى التنائي) التى تعرف بالنونية ـ إشارة إلى

قافيتها من حرف النون، بل يتناول قصائد ابن زيدون ـ الأخرى التى تمت معارضتها من عشرات الشعراء قديما وحديثا، وقد بلغ حجم هذه القصائد سبعا وخمسين قصيدة لشعراء من كل العصور.

يستهل "ابن زيدون" نونيته بقوله:

أضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وصولا إلى قوله:

بنتم وبنا، فما ابتلت جوانحنا
شوقا إليكم، ولا جفت مآقينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومربع اللهو صاف من تصافينا
بنتم وبنا، فما ابتلت جوانحنا
شوقا إليكم ولا جفت مآقينا

الديوان فى طبعته الـجديدة ـ التى أصدرتها الـمؤسسة قدم لـها وراجعها الدكتور "مـحمد إحسان النص" معتمدا على الطبعة التى سبق قيام الأستاذ "على عبد العظيم" بشرحها وتحقيقها ـ يخبرنا أن الشاعر فر من سجنه بقرطبة إلى إشبيلية ـ المسافة بين المدينتين قطعناها بالسيارة فى ساعة ونصف، من المؤكد أنها كانت تستغرق فى زمن ابن زيدون أياما عدة ـ ولكن قلبه جذبه إلى حبيبته بقرطبة، فأرسل إليها هذه القصيدة الخالدة التى نالت شهرة عظيمة، وثارت من حولها الأساطير حتى قيل: ما حفظها أحد إلا مات غريبا، ولهج كثيرون بأن إنسانا لا يتم له الظرف

obeikandl.com

ما لم يحفظها!

لن نتوقف للتعليق على هذا الكلام، إذ من الواضح أنه صادر عن قلب شاعر ومحقق محب لابن زيدون هو الأستاذ "على عبد العظيم"، الذى صاغ بقلمه مقدمات لقصائد الديوان وعناوينها. وعندما فكرت (مؤسسة البابطين) فى تقديم طبعة جديدة من ديوان ابن زيدون، وجدت طبعات عدة منه حققها عاشق ابن زيدون وعاشق التراث الأندلسى الأستاذ "على عبد العظيم"، الذى عبر عن هذا العشق أيضا فى مسرحية شعرية بديعة سماها (ولادة) وقد تميزت النسخة التى حققها بالجودة العلمية والشروح الوافية وقضائه شطرا كبيرا من عمره فى دراسة ابن زيدون وآثاره، وكان صدور دراسته لأول مرة فى عام ١٩٥٧ فى القاهرة.

الطريف: أن عددا كبيرا من الباحثين الذين اهتموا بدراسة فن المعارضات فى الشعر العربى تحت مسمى: (الموازنة بين الشعراء) مالوا إلى تفضيل معارضات "شوقي" لمن عارضهم من الشعراء "كابن زيدون والبحترى والبوصيري". وقد شهدت دورة ابن زيدون ـ فى جلساتها البحثية والنقدية عن الشاعر ـ حوارا مثمرا بين الأستاذين: الدكتور "محمود على مكي" ـ وهو حجة فى كل ما يتصل بالأندلس ـ والدكتور "محمد حسن عبد الله" الذى أعلن تفضيله لقصيدة شوقي، فانبرى الدكتور "مكي" مفندا، ومدافعا عن شاعرية ابن زيدون واقتداره الفني، فى وجه نونية شوقى التى تفتقد ـ فى رأيه ـ الروح والحرارة.

فى البحث الذى قدمته الدكتورة "ماريا خيسوس بيفيرا" التفاتة ذكية إلى أن قصة الحب فى شعر ابن زيدون هى قصة الحضر، قصة حضرية، تغاير ما عرفه الشعر العربى القديم من قصص الحب البدوية، وقصص الحب العذرية. كما أن قصة الحب عند ابن زيدون قصة واقعية ، تدور فى إطار حضارة الأندلس: أهم حواضر العالم الإسلامي، وفى قرطبة العاصمة، مما أعطى للقصة شهرة واسعة وأعطاها هو أيضا، فهى شهرة متبادلة. والدكتورة "ماريا" ترى أن ابن زيدون كان قبل كل شىء

شاعرا عاشقا، فقد أحب "ولادة" وكانت أميرة ذات نسب ملكي، بها طابع الرجولة، ومثقفة، وآية فى الرشاقة والحسن، وانتهى بها الأمر إلى هجره وازدرائه. وتحولت قصائد ابن زيدون ـ خاصة نونيته الشهيرة ـ إلى مثار لذة وتسلية للغرب فهى قصيدة إنسانية تقترب من الذوق الغربي، وتخلو من الألوان الزاهية التى كانت مألوفة وشائعة لقصص الحب فى الشعر العربي. وقد نجد فيها أبياتا تعكس لونا كلون الرخام القديم، وتختلط فيها الأضواء بظلال سوداء كلوحة شطرنج، يلعب عليها ابن زيدون دورا فى حبه اليائس

الباحث السورى الدكتور "وهب رومية" خرج على المعهود والمألوف فى مثل هذه الملتقيات، التى يكون همها الأساسى الحفاوة بالمحتفى به، وإسباغ صفات الثناء عليه والإشادة به. من هنا، كانت ردود الفعل الحادة التى لقيتها دراسته عندما استخلص من شعر ابن زيدون ـ خاصة قصائده فى المديح ـ من حيث البنية والموقف ما يمثل علاقة بينها وبين شخصية الشاعر التى وصفها بالمداجاة والنفاق والتأفق، واللعب على الحبال والوصولية... وغيرها من الصفات السلبية المذمومة.

واتسع مجال الحوار لمداخلات شتى، بعضها يحرص على إعادة الهيبة والاحترام لشخص "ابن زيدون" وبعضها الآخر يرى فى كلام الدكتور "رومية" اهتماما بالشاعر لا بشعره، الذى هو الموضوع الرئيسى والهدف الذى ينبغى أن تتوجه إليه الدراسة. لكن الحوار كشف عن ضيق صدور كثير من باحثينا بأى رأى جديد، أو فكرة غير مطروقة، وكأن التراث الأدبى مقدس.

من الطبيعى أن تهتم أبحاث الدورة "بولادة" الأميرة الشاعرة ومعشوقة ابن زيدون، خاصة عند الحديث عن (المرأة) فى الشعر الأندلسي: ولادة بنت المستكفى نموذجا. فقد لاحظت الدكتورة " ماريا تيريسا غارولو" أن الشاعرات العربيات ـ اللاتى يذكر شعرهن فى مصادر العصور الوسطى ـ وهن كثيرات ـ لم يحظين بما تحظى به "ولادة" من شهرة، ولم تنل واحدة منهن من الاهتمام ما نالته الشاعرة

الأندلسية والأميرة القرطبية التى كانت مصدر إلهام لأفضل شعر قيل فى موضوع العشق فى بلاد الأندلس، فى قصائد ابن زيدون التى خلدتها، رغم أنها كانت سببا فى ألمه وتعاسته.

ولاحظت الباحثة أن معلوماتنا عن "ولادة" قليلة، شأنها فى ذلك شأن كل نساء العرب اللاتى ذكرن فى مراجع الأدب. ذلك لأن المرأة العربية عادة تتسم بالشح فى إعطاء بيانات عنها، وذكر معلومات عن حياتها، لأن ذلك لا يتفق مع حرمة المرأة وقدسية أسرارها، التى لا تخرج عن دائرة بيتها ورجلها، وإذا سمع صوتها فلا يسمع إلا من خلال الرجال. أما "ولادة" فقد عبرت حدود الثقافة العربية، بدليل حضورها فى المختارات الشعرية عند الحديث عن شعر النساء، وفى الأعمال الإبداعية التى تخصص لها، وقد تحولت فى الغرب إلى نموذج للنساء تظهر من خلاله حياة بنات حواء فى الأندلس.

تقول "ولادة" فى أبيات بعثت بها إلى ابن زيدون:

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق
سبيل، فيشكو كل صب بما لقي؟
وقد كنت – أوقات التزاور في الشتا –
أبيت على جمر من الشوق محرق
فكيف؟ وقد أمسيت في حال قطعة
لقد عجل المقدار ما كنت أتقي
تمر الليالي، لا أرى البين ينقضي
ولا الصبر من رق التشوق معتقي

فيجيبها ابن زيدون بقوله:

لحا الله يوما لست فيه بملتق

محياك من أجل النوى والتفرق

وكيف يطيب العيش دون مسرة؟

وأي سرور للكئيب المؤرق

ولا يزال الحديث عن (دورة ابن زيدون) وعودته إلى قرطبة موصولا.

***

obeikandl.com

"ابن زيدون.. يعود إلى قرطبة"

(٣)

لا تقاس قيمة المؤتمرات والندوات بعدد المشاركين فيها، ولا بكثرة جلساتها وتعدد مناقشاتها وحواراتها، بقدر ما تقاس بالجديد الذى تثيره وتقدمه، تحريكا للسائد والمألوف، ومجاوزة له، وطرحا لأسئلة جديدة ليس ضروريا أن تكون لها إجابات سريعة وحاسمة.

بهذا الفهم، تصبح دورة ابن زيدون ـ التى انعقدت فى قرطبة عاصمة الأندلس ـ بجانبيها: الأدبى المتمثل فى ندوة ابن زيدون والأندلس، والفكرى المتمثل فى الندوة المصاحبة بعنوان: (الحضارة العربية والإسلامية والغرب: من الخلاف إلى الشراكة) مثلا للاقتحام المطلوب أدبيا وفكريا، مع تبنى شعار حرية البحث، والتبادل المعرفى والثقافى والإنساني، وتباين وجهات النظر حول الثقافة ودورها فى فهم دلالات التطرف والعولمة، وجدلية الهوية والاندماج ما بين الشرق والغرب، وفضح الصور السلبية للاستعمار الأجنبى فى مناطق من العالم العربي: (فلسطين والعراق)، وتوضيح المحاذير الضرورية فى هذا المجال. من بينها مثلا: ما أشار إليه الباحث المغربى الدكتور "على أو مليل" من أن أية ثقافة غير عربية لابد أن تواجه مصيرين: إما أن تتحول إلى ثقافة محلية تخص قومها وتتهم بالمحلية والانعزالية، وإما أن تكسب رهان التحديث، وتحظى بقيمة تبادلية فى سوق الثقافات المتقدمة، وتصبح قادرة على حوار الآخر، وتفرض حضورها وجدواها بالنسبة إليه.

ويشير الدكتور "خوان بيدرو سالا" إلى ما أسماه: عناصر العولمة فى المجتمع الأندلسى فى إطار اهتمامه بمعنى كلمة "أندلس" التى تصف أولئك السكان الذين أقاموا فيما يسمى بالأندلس بعد دخول العرب إلى إسبانيا عام ٧١١ ميلادية، وكيف أن العرب بعد دخولهم مباشرة سعوا إلى تكوين هوية متوافقة وأيديولوجية محافظة، تضمن استمراريتها تحت مظلة الخلافة الأموية الدمشقية. موضحا أن الدولة الإسلامية الجديدة فى الأندلس سلكت لتحقيق ذلك طريقا ذا طابع سياسى واجتماعي، يصب فى اتجاهين متكاملين: التعريب، والأسلمة. ولم يلبث هذا المنحى أن آتى ثماره؛ لأن اللغة والدين هما: الأداتان اللتان لهما التأثير الأكبر فى تكوين أى مجتمع من المجتمعات، بالإضافة إلى النسيج السياسى الذى تحركه السلطة السياسية. وكان من أهم ما كشفت عنه المداخلات: اننا ـ نحن أبناء العالم العربى شعوبا ومثقفين وساسة ـ نحتاج إلى قوى المجتمع المدنى للسير فى التحدى الحضارى المتبادل، وهو أمر يطرح قضية أوضاع الحرية والديمقراطية وتسلط الأنظمة، والمساحة المتاحة لمنظمات المجتمع المدنى وقواه، لكى تمارس دورها بفاعلية واستقلالية.

على المستوى الأدبى تمثل **النجاح الأول** فى خفوت صوت الانبهار بشاعرية "ابن زيدون" من خلال تأمل ديوانه وآثاره النثرية الملحقة بالديوان. فقصائده الذائعة التى رددها الناس قليلة جدا، بالنسبة إلى حجم الديوان الذى تسيطر على معظمه قصائد الشكوى والعتاب والمدائح والرثاء والهجاء والمطيرات (وهى نوع من المطارحات الشعرية، ينهض على الأحاجى والألغاز تدور كلها حول أسماء الطيور، ولكل طائر حرف يرمز إليه، وقد تتغير الرموز بتغير القصائد، وهذه المطارحات رياضة ذهنية، وتدريبات شعرية، دارت بين "ابن زيدون والمعتمد بن عباد" إلا واحدة دارت بين الشاعر و"أبى طالب بن مكي"). وتبقى نونيته وقصيدته فى "الزهراء" وقصيدته التى سماها الديوان (طبائع النفوس) التى أرسل بها الشاعر من

سجنه إلى صديقه "أبى حفص بن برد الأصغر"، ويقول فى مستهلها:

ما على ظنى باس يجرح الدهر ويأسو
ربما أشرف بالمرء على الآمال ياس
ولقد ينجيك إغفال ويرديك احتراس
والمحاذير سهام والمقادير قياس

تبقى هذه القصائد الثلاث دالة وشاهدة على شاعرية ابن زيدون التى أهدر معظمها فى المطارحات ومجالس الشراب والهجائيات والمدائح. **النجاح الثانى** كان فى الارتفاع إلى الأفق الأرحب للدراسة المقارنة، وحجم التأثير الذى صنعه الشعر الأندلسى فى الشعر الإسبانى القديم والحديث والمعاصر، والذى كان يمثل مجالا رحبا للاستلهام عند شعراء كبار من أمثال "لوركا وماتشادو وبكره" وأيضا الكشف عن صورة ابن زيدون وشعره فى الدراسات الغربية، وتأثير الشعر الأندلسى فى الشعر البرتغالى من خلال قوالبه الكلاسيكية وأشكاله الجديدة كالموشحات والزجل. وهو الأمر الذى ينبه إلي: أهمية إعادة القراءة، من خلال وعى نقدى لا يقف عند السائد والمكرور، ولا يتعامل مع قضايا الثقافة والأدب باعتبارها مسلمات أو مقدسات.

النجاح الثالث تمثل فى إعادة الكشف عن روح الأندلس وإسهاماته الثقافية والحضارية من خلال دراسات عربية وإسبانية، استهلها الدكتور "محمود على مكي" بالإشارة إلى أهم مظاهر الأصالة فى الحضارة الأندلسية ـ التى نبعت أصلا من المشرق ـ ومنها: قضية التهجين العرقى واللغوي، التى تميز مجتمع الأندلس، والدور الذى أداه المستعربون المسيحيون فى المجتمع الإسلامي، وإسهامهم الحضارى فى نمو المجتمع المسيحى فى الشمال، والدور الذى قامت به المرأة الأندلسية فى المجتمع، وكيف كانت تتمتع بقدر أكبر من الحرية، بالمقارنة إلى المرأة الشرقية، بالإضافة إلى استحداث فنين شعريين أصبح للمشارقة بهما ولع شديد هما:

التوشيح والزجل. فضلا عن دورهم فى مجالات العلوم المختلفة كالفقه والشريعة والطب والطبيعة وعلم الفلك ... وغيرها.

أما **النجاح الأكبر** فكان فى اختيار "قرطبة" بكل ما ترمز إليه ـ فى سياق الحضارة الأندلسية ـ من إبداع وفكر وتسامح وتنوير، وهى القيم التى نسعى إلى تأكيدها الآن فى مواجهة قوى عاتية ضارية، لا مجال لديها لحديث القيم أو خطاب الضمير، أو حتى الالتفات إلى ما يسمى بالعدل والحق. واختيار الشعب الإسباني، ومجتمع "قرطبة" ميدانا لنشر خطاب الدعوة إلى الشراكة بين الحضارة العربية والإسلامية والغرب، بدلا من الخلاف والمواجهة. وشحن الوجدان العربى والإسلامى المعاصر بأقباس من تراث أجدادهم الحي، المتجسد فى معالم شتى تملأ الفضاء الأندلسى كله، وفى قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة على وجه الخصوص. وفى هذا الإطار، كانت الزيارة التى أتيحت لعدد من المشاركين فى دورة ابن زيدون إلى غرناطة، استعادة لهذا الحلم، بكل مشاهده الزاهيه والقاتمة، الظافرة والمنكسرة، وهم يتأملون فى قصر "الحمراء" وعمارته الباذخة، وحدائقه النادرة، وقلاعه وحصونه السامقة التى تقابل القصر وتدعى: (جنة العريف)، فردوسا أضاعه العرب، فبكوه مثل النساء؛ لأنهم لم يعرفوا كيف يحافظون عليه مثل الرجال!

ولعل من أروع ما قيل فى غرناطة وقصرها الباذخ "الحمراء" قصيدة الشاعر الإسبانى "فيلاسباسا" الذى عاش مدة من عمره فى البرازيل، واتصل به عدد من شعراء المهجر الجنوبي، من بينهم: "فوزى المعلوف" الذى ترجم إلى العربية شعرا قصيدة "فيلاسباسا" التى يقول فيها:

غرناطة، أواه غرناطة
لم يبق شىء لك من صولتك
هل نهرك الجارى سوى أدمع
تجرى على ما دال من دولتك

والنسمة الغادية الرائحة

هل هى إلا زفرة نائحة

ما عدت فى النهر كسلطانة

جبهتها فى مائه ساطعة

ولم يعد فيها لآثارها

وهج، وللمئذنة اللامعة

آه على أمجادك الضائعة

شيعتها بالنظرة الدامعة!

ولقد أبت الطبيعة الأندلسية الفاتنة، إلا أن تشارك فى هذه الاحتفالية الكبرى بابن زيدون، والحضارة الأندلسية، فودعتنا ـ قبل الرحيل ـ بليلة ماطرة، سعد بها مواطنو "قرطبة واستبشروا. كما جعلتنا نغتسل روحا وجسدا بهذا الفيض المتجمع من خضرة وموسيقى وشعر وغناء، ونغتنم إقامتنا فى أماكن من قرطبة كأنها أجزاء من الفردوس. وكان الفندق الصغير الذى نزلت فيه وبعض المشاركين آية فى الجمال والهدوء والنظافة، والإطلالة الغارقة فى مساحات واسعة من الخضرة والعطور، وعناق الأشجار تمد أعناقها من شرفة الغرفة، مشاركة فى الحفاوة والترحيب. ساعتها يلوذ الإنسان بداخله، ويستعيد أصداء المكان والزمان، أما المكان فقطعة حية من التاريخ، ومشهد رائع من الحاضر، وأما الزمان فهو عمر الشعر الذى لا بداية له ولا نهاية، لأن صوت ابن زيدون لا يزال يشدو. "فولادة" ما تزال تمارس أمور دلالها وصبواتها وعبثها بالعشاق، والأمسيات الشعرية المصاحبة لدورة ابن زيدون تعطر المكان فى جامعة قرطبة وفى خارجها، بإبداعات مواهب شعرية واعدة، لكن هذا كله موضوع حديث قادم.

***

"ابن زيدون.. يعود إلى قرطبة"

(٤)

يكفى أن تكون فى أرض عاش فيها "ابن زيدون": شاعر الأندلس الأشهر، وسماء أظلته وأتاحت لأحلامه أن تحلق، ولصبواته المشبوبة أن تتصاعد وتتوهج، وآثار باقية لا تزال تحمل بقايا أنفاسه، هو ومعشوقته "ولادة بنت المستكفي" ـ الأميرة الشاعرة ـ وبقايا عطر أيام الزمان الغارب الشاهد على وجود عربي، يفيض حضارة وإبداعا ـ يكفى أن تكون فى قلب هذا المشهد النادر بكل تداعياته وظلاله، وصوره وإيحاءاته، حتى يتفجر وجدانك بالشعر، وحتى يصبح الشعر جلوة مع إشراقة الصباح، ولمعة فى عيون الليل الساجي، وشرفة نطل منها على الجوهر الإنساني، فى أصفى حالاته وأروع تجلياته.

وفى قرطبة: عاصمة الأندلس، حيث كانت وقائع دورة ابن زيدون، وهى الدورة التاسعة فى سجل دورات (مؤسسة البابطين) للإبداع الشعري، كانت سعادتى غامرة، وأنا أتنفس شعرا يمتلئ به الأثير، وجمالا تنطق به كل الكائنات، وتنبض به الطبيعة فى كل صورها البديعة الحية. وألتقى بأصدقاء ـ من رفاق العمر الجميل ـ وأحباء تباعدت بهم المسافات، وتبددوا مع الريح فى كل اتجاه، ثم أتاح لهم ابن زيدون، والتجمع المقام باسمه فرصة التلاقى من جديد، والتعرف على ما صنعته الأيام، بعد أن بدأ زحف التجاعيد، وتبدد الشمل وتكسرت الأحلام. هاهو ذا "محيى الدين فارس" ـ الشاعر السودانى الكبير ـ بشحمه ولحمه، الفائز بالجائزة التكريمية للإبداع الشعرى فى مناسبة هذه الدورة، والذى لم ألتق به منذ سنوات

طويلة، يجيء مقعدا على كرسى متحرك، وقد كان يملأ القاهرة طوال سنوات عاشها بيننا هو وزميلاه المبدعان فى الشعر: " تاج السر الحسن وجيلى عبد الرحمن، يملأون الحياة الأدبية حضورا ومشاركة، وينشرون قصائدهم الطليعية فى صحف مصر ومجلاتها: الرسالة والثقافة والمصرى والأهرام والمساء والعالم العربي، فضلا عن عديد المجلات العربية. وكانت الخمسينيات زمنا جميلا لمتابعة هؤلاء على المستويين: الإنسانى والشعري، ومن قبلهم كان المبدع الكبير "محمد الفيتوري" قد سبق إلى وجدان المثقفين والجمهور العام باعتباره شاعرا مصريا سودانيا فى وقت واحد، له نصيبه الموفور من الريادة الإبداعية، والتأثير الواسع.

ولد "محيى الدين فارس" عام ١٩٣٦ فى جزيرة "أرقو" بالإقليم الشمالى من السودان، وأتم دراسته الابتدائية والثانوية بمدينة الإسكندرية، والجامعية بمدينة القاهرة، وعمل ـ بعد تخرجه ـ أستاذا محاضرا (بكلية بخت الرضا) ومفتشا فنيا فى التعليم، ثم تفرغ لإنتاجه الأدبى الذى يمتلئ بدواوينه الشعرية: الطين والأظافر، ونقوش على ظهر المفازة، وصهيل النهر، وقصائد من الخمسينيات، والقنديل المكسور، وتسابيح عاشق.

وقد أتيح لقراء شعره ـ عبر مسيرة نصف قرن من الإبداع ـ أن يتابعوا قدرته على البناء الدرامى للقصيدة، ولغته الشعرية المتوترة، وايقاعاته القوية الجياشة، ونفسه الإنساني، ونزوعه القومى الذى لم تعصف به الأحداث والتقلبات والانكسارات، قابضا بيديه على جمرة الشعر الحقيقية دون أن تجرفه الموضات التى زعزعت حقيقة الشعر، وأفقدته إحكامه الفنى وعمق تأثيره.

كان صوت "محيى الدين فارس" ـ فى الملتقيات والمهرجانات الشعرية ـ المصرية والعربية: عاليا وهادرا ومجلجلا، وكان إلقاؤه يتصاعد من طبقة صوتية إلى أخرى، حتى ليخشى سامعوه تقطع أنفاسه وتمزق أوتاره، وهو مستغرق فيما يشبه الحلول الصوفي، ينفصل ويبتعد، معمقا تأثيره فى جمهوره.

لكن الداء اللعين الذى جعله الآن مقعدا، نتيجة لعمليات جراحية متتالية، لم يطفئ حماس روحه ووضاءة جبينه، ولم يضيق من سعة صدره ورحابته لاحتضان أصدقائه ورفاقه ومحبيه، دون مرارة أو شكوى أو انهزام.

ما زلت أذكر قصيدة له عنوانها (السلم) أبدعها من وحى السيمفونية الخامسة "لبيتهوفن"، نشرت فى مجلة (الآداب) البيروتية، وعلق عليها الناقد والمفكر الكبير "محمود أمين العالم" فى إطار قراءته النقدية للعدد الماضى من الآداب (وهو الباب الذى كانت المجلة تحرص على اختيار النقاد المتميزين، للتعليق فيه على المواد المنشورة فى العدد السابق) وكان "العالم" يعلق على ما وجده من تشابه ـ أو تناص ـ بين قول "محيى الدين فارس":

وأنا أريد وكم أريد

ولست أملك ما أريد

وقصيدة سبقتها للشاعر "محمود أبو الوفا" ـ صاحب قصيدة (عندما يأتى المساء) التى تغنى بها الموسيقار عبد الوهاب ـ يقول فى مطلعها:

أريد وما عسى تجدى أريد

على من ليس يملك ما يريد

واستمتع قراء الآداب بسجال جميل وطريف بين الشاعر وناقده، كانت لغة الشاعر فيه متوترة، تماما كلغته فى شعره.

يقول "محيى الدين فارس" فى قصيدة (السلم):

ما زلت أصعد

وحدى هنا ما زلت أصعد

والليل تمثال مصفد

هجرته آلهة القرون،

وزايلته رؤى قياصره القديمة
عيناى بالأفق البعيد ترود أرصاد النجوم
تطوى متاهات الغيوم
ما زلت أصعد
وحدى هنا ما زلت أصعد
والريح تجذبنى بمشجبها العنيد
للقاع ـ يا أختاه ـ تجذبنى بمشجبها العنيد
وخواطرى البلهاء تعلق بالصدى المنغوم
فى الأفق البعيد
وتلم أركان البعيد
وأنا أريد .. وكم أريد
ولست أملك ما أريد
الريح تجذبنى بمشجبها العنيد
للقاع ـ يا أختاه ـ تجذبنى بمشجبها العنيد
لكننى سأظل أصعد رغم إعيائى الشديد
النور فى الأفق البعيد
ينداح منسابا خلال سقيفة الغيم الطريد
كم ليلة كنا نشد حبالنا،
والبئر ما زالت قراراتها بعيدة
كرؤى متاهات شريدة
والريح تجلدنى سواعدها المديدة
زادى احتراق مشاعري، وضلوعى المتخاذلات

obeikandl.com

متلفت كالطير، كنت على طريقي،
والغيوم مروحات
سأظل أرتقب الحصاد
أختاه قد حان الحصاد، حصاد عالمنا المجيد
سأظل أصعد من جديد
أكبو وأبدأ من جديد
فلتسخرى بى يا رياح،
وقيدى فى القاع خطوي
ولتطفئى كل الشموع
سأظل أصعد من جديد!

وفى ختام قصيدته يقول "محيى الدين فارس":

لكننى .. مازلت أصعد
وحدى هنا مازلت أصعد
وأبعثر الظلمات، مازالت دفائنها مخبأة الكنوز
ومظلتى فى الهول.. كانت قبة الليل العجوز
أبنى وأهدم ثم أبنى من جديد
للفجر، للفجر الذى حنت له نفسى المشوقة
فالبرعم الغافى بأعماقى تفتحه أنامله الرقيقة

هذا الشعر الهادر كالنهر ـ فى جريانه وتدفقه محملا بطمى السودان الذى أكسبه الخصوبة والعافية، امتدادا لموجات متعاقبة فى الحركة السودانية الحديثة والمعاصرة، التى التمعت من خلالها إبداعات:" محمد سعيد العباسى والتيجانى يوسف بشير ومحمد المهدى المجذوب ومبارك المغربي"، وصولا إلى الجيل الذى ينتظم:

obeikandl.com

"الفيتورى وتاج السر الحسن وجيلى عبد الرحمن ومحيى الدين فارس"، وصولا إلى "محمد عبد الحى وروضة الحاج... وغيرهم من المبدعين ـ على امتداد الزمن واتساع الرقعة والساحة ـ هذا الشعر هو نبض السودان: إنسانا وأرضا وتاريخا وحضارة، وموروثا صوفيا ضخما، استقر فى القرار البعيد، من وجدان عديد من الشعراء السودانيين، وأعطى لشعرهم خصوصيته وتفرده، وامتلاءه بهذه الروحانية الآسرة، والمذاق النيلى الجميل.

***

obeikandl.com

فهرس الكتاب

إهداء	٥
هذا الكتاب	٧
سؤال الشعر	٩
الشعر إنقاذ .. والشاعر منقذ	١٣
الفيتورى .. نموذجا	٢٠
رسالة من وراء الأسوار	٢٤
قصيدة لكل زمان	٢٩
الشعراء والسلطة	٣٣
"أبو سنة" .. وانكسار الحلم	٣٩
الحنين إلى الممالك الضائعة	٤٥
ابتهالات الصيف البارد	٥٠
"يوسف نوفل" .. واستشفاف الشعر	٥٦
صرخة فى وجه الرداءة والهبوط	٦٢
"خالد الساكت" .. والحلم الذى كان	٦٦
عمان فى عيون الشعراء	٧٣
فى رحيل "فدوى طوقان"	٧٩
سيبقى الحب سيدى	٨٥

obeikandl.com

مواقف "أبى علي" وشعره الجميل ٩١
"شوقى بغدادى" .. و"البحث عن دمشق" ٩٨
كلمات من طمى الفرات ١٠٢
بغداد خانتني ١٠٩
"عبلة الرويني".. و"شعراؤها الخوارج" ١١٥
فى رحيل "عبده بدوى" ١١٨
شاعر يحب فى خريف العمر ١٢٣
"قاسم حداد" الذى أيقظته الساحرة ١٢٧
بين والد وولده ـ ١ ـ ١٣١
بين والد وولده ـ ٢ ـ ١٣٧
ابن زيدون يعود إلى قرطبة (١) ١٤٤
ابن زيدون يعود إلى قرطبة (٢) ١٤٩
ابن زيدون يعود إلى قرطبة (٣) ١٥٥
ابن زيدون يعود إلى قرطبة (٤) ١٦٠

obeikandl.com